حبيب حبيبى

قصص

درويش الزفتاوى

المــــؤلـــــف : درويش الزفتاوى
الكـــتــــاب : حبيب حبيبى
النـــاشــــر : نـــادى القصـــة
الطبـعــة الأولى : ٢٠٠٢ م
رقـم الإيـــداع : ٢٠٠٢/١٠٧٥٩

نـــادى القصـــة
٦٨ شارع قصر العينى القاهرة ت : ٧٩٤١٩٢٩



هيئة المكتب

الجميل

لا أدرى كيف وافقت زوجتى على ذهابى مع روحية إلى شقتها لأصلح لها كبس النور، بعد أن (ضرب) وأظلمت الشقة؟ ربما لفرط ثقة زوجتى فى أخلاقى القويمة، ولكن هل تثق هى فى روحية ؟

لا أكاد أصدق.

فروحية حينما تتكلم، أو تضحك تستحوذ على مشاعر أقوى الرجال وأشدهم عزما.

دلفت إلى داخل الشقة وفى يدى (التست) وسلك رفيع، واستطعت أن أصلح الكبس وأعيد النور، وحينما أضيئت الشقة رأيت روحية وكأنها سيدة أخرى، غيرت ملابسها فى اللحظة التى كنت أصلح فيها النور، ارتبكت، أهذه الغلالة التى ترتديها تسمى ثوبا ؟

تبسمت، فارتفعت حرارتى، سيدة شابة شبه عارية مع رجل غريب داخل شقة والشيطان - لا محالة - ثالثهما، لم أكن أعلم أن هناك نساء فى مثل هذا الجمال، أجرى عقلى مقارنة بين زوجتى فى مثل هذه الحالة وروحية شتان بينهما، هناك فارق كبير، تذكرت تمثال (فينوس) التى يسمونها ربة الجمال روحية فى تلك اللحظة تفوق

(فينوس) جمالا وفتنة، قالت :

- هذه أول مرة يدخل فيها شقتى رجل غريب بدون وجود زوجى، لكن أنت لست غريبا، أتحب أن تشاهد غرف الشقة ؟

انسقت خلفها، وكأنها ربطتنى بحبل متين تسحبنى به .

- هذه غرفة الاستقبال، وهذه غرفة النوم، لا تسخر منا لأننا نضع هذه الصور العارية فى غرفة النوم فنحن مازلنا عروسين لم نكمل العام بعد منذ زواجنا، ورغم ذلك سافر زوجى بعد شهور وتركنى.

تتجول فى الشقة بعودها الفارع وجمالها الفاتن، انساق خلفها مشدوها، شل تفكيرى تماما نسيت زوجتى، أفكر فقط فى الحديقة الغناء الماثلة أمامى بقطوفها اليانعة الدانية.

جذبت بعض الكلمات من فمى بصعوبة، حتى لا يظهر ارتباكى أمامها :

- شقة جميلة والأثاث ممتاز .

- طول عمرك مجامل، أتذكر ؟

وقفت فى الصالة ثابتا، لمحت على الحائط صورة كمال معلقة. علقت :

- صورة صاحبك. كنت تأتى إلى بيتنا من أجله، وهو أيضا كان يذهب إلى بيتكم.

– ألا يزورك كمال ؟

– أنا التى أذهب إليهم.

– كمال شاب ممتاز .

– إنت كنت معجبا بى، أليس كذلك ؟ بل أجزم أنك كنت تحبنى، أتذكر، كنت كلما ذهبت لأعد لكما الشاى تأتى خلفى إلى المطبخ بحجة أنك تبغى مساعدتى.

أيقظت فى رأسى الذكريات، تراءت لى صورها، حينما أتى كمال الى بيتنا يسأل عنى لنستذكر دروسنا معا كعادتنا كل مساء. كانت أمى قد خرجت لزيارة خالتى ، وأختى غاضبة من زوجها. تقيم معنا. طالت مدة غضبتها. تجاوزت الستة أشهر. وكنت أنا قد خرجت اشترى حذاء لى من السوق، وجئت فرحا به، وأقسمت فى الطريق أن لا ألبسه حتى أريهم أننى أفلحت أن أشترى حاجياتى بنفسى ولم يضحك على البائع، لابد أن أتسلل إلى داخل البيت بهدوء ثم أفاجئهم بالحذاء الجميل الذى اشتريته وحدى، سألقيه أمام أمى وأختى (تيسير) وسوف تقول تيسير : اشترلى حذاء حريمى، مادمت فالح فى الشراء هكذا.

صعدت درج السلم على أطراف أصابع قدمىّ وقبل أن أدخل الغرفة بهذه الخفة التى لا تدع أحد يشعر بى سمعت كلامها، أذهلنى، لم أكد أصدق.

أفصحت لكمال عن حبها له، وقدمت له حديقتها الغناء ليقتطف من ثمارها ما يشاء، ولكنه أبى. قال : (إنت أخت صاحبى وأنا لا أخون صاحبى).

ثارت، سمعت صفقة قوية تهوى على خد صديقى الوفى، كدت أجن، أصرخ فى داخلى: أختى الكبرى العاقلة تيسير؟ لو أستطيع أن أضربها، لو أستطيع أن، لكن كمال سيحتقرنى لو عرف أنى سمعت حديث إغراءها له، يجب أن اتكتم الأمر، فلو علم زوجها لفضحنا فى البلدة كلها ، ثم وجد مبررا لتطليقها، ستة أشهر غاضبة ولم يسأل عنها .

تقهقرت للوراء، هبطت الدرج بهدوء كما صعدت بهدوء.

صحوت من الذكرى، الموقف يتكرر معى الآن.

ماذا أفعل ؟

جذبتنى من يدى بحنو، كدت أذوب شوقا، أشعر بارتفاع حرارتى أتصبب عرقا، لا أكاد أسيطر على مشاعرى، كدت أن ...

فجأة اصطدم بصرى بصورة كمال، عيناه عادت إليهما الحياة، تنظران إلى بعتاب، تعيدان إلى سمعى حديثه مع أختى.

انتزعت نفسى من بين يديها، هرولت خارجا من الشقة.

- أبلغى أخاك تحياتى.

المعجب

أدفع نصف عمرى لمن يدلنى على من أرسل لى هذا (الشيك) تقف زوجته منبهرة، وثلاثة من أولادهما حولهما، يترقبون، لقد جاء الفرج، كلهم فى مراحل تعليمية مختلفة، من الابتدائى إلى الثانوى وهذا الشيك جاء فى الوقت المناسب.

فتح الخطاب مرة أخرى – قرأ – :

(لا تحاول أن تعرف من أنا، تستطيع أن تطلق على المعجب، ثم اصرف النقود فهى حلال لك، ولا تظن أن هذه النقود هى تعويض عما خصم منك فى العمل، وليست مكافأة لك لحسن صنيعك، فأنت لم تصنع شيئا خارقا للعادة، لكنك فعلت ما يستطيع أن يفعله أى إنسان، أقول إنسان ولا تحسب أن الإنسانية فقدت نخوتها وأنك أنت الوحيد الذى تملكها؟ لا أقول لك ذلك حتى لا يأخذك الغرور، أما النقود فهى تحية لإنسان تصرف كإنسان، والسلام.

المعجب.

أغلق الخطاب وأخذ يضرب كفا بكف مندهشا.

قالت زوجته بهدوء :

– ما الذى يدعوك لاستنكار هذا ؟ رجل رأى ما فعلته، فأعجب بشهامتك فأرسل هذا الشيك هدية لك.

– وكيف عرف عنواني..؟ هل هو أحد زملائى فى العمل؟ هذا مبلغ كبير ولا أظن زملائى يفعلون؟ أنهم حاقدون على، كلهم بدون استثناء حاقدون يحسدوننى لأنى أدرس فى الجامعة، سمعتها بأذنى، قال أحدهم، مستنكراً سائق اتوبيس، بعد شهر سيحصل على مؤهل جامعى، بكره سيكون له شأن، ونحن فى مكاننا كما نحن، سائقون إلى أن نموت.

قالت الزوجة :

– ربما هو أحد الأثرياء، كان يسير بسيارته فى نفس الطريق الذى وقعت به الحادثة وشاهد صنيعك فأعجبه فأرسل لك هذا الشيك.

– ولنفرض أن هذا حدث فكيف عرف العنوان ؟

– ربما أخذ رقم الاتوبيس الذى كنت تسوقه، واتصل (بالهيئة) فأعطوه عنوانك.

– كيف ؟

– سألهم : ما اسم السائق الذى كان يسوق اتوبيسا رقم كذا، فى ساعة كذا؟ فى مكان كذا ؟ فأعطوه الاسم والعنوان.

– ما غرضه من ذلك ؟ أنا لا أقبل إحسانا من أحد.

نظرت الزوجة إلى أولادها وكأنها تقرأ أفكارهم، ثم قالت :

– هذه هدية وليست إحسانا، أولادك يقفون هنا الآن فى انتظار أن تسمح لهم بعرض طلباتهم، كل منهم له مطلب، حين نطقت بكلمة شيك هزت الكلمة قلوب من فى البيت، ايقافك عن العمل، وما خصم منك جعلنا نحس بالضنك.

أحس بأنها تلوى ذراعه الضعيفة، فقال معاتبا :

– إنها عشرة أيام يا امرأة أوقفت فيها عن العمل، وخصمت من مرتبى.

– لقد عوضك الله عما خصمته منك (هيئة النقل العام).

– ترى هل هو صاحب السيارة الذى ساعدته ؟ لا ، لا أظن ذلك، وأن كان هو فلابد أن أرد له المبلغ، أنا لا أخذ ثمنا لمعروفى.

– وما ذنبك وذنب أولادك، أن يخصم من المرتب عشرة أيام؟ ماذا كان يضير الهيئة حين استعملت (مطفأتك) فى اطفاء سيارة خاصة؟

– أرجوك لا تجعلينى أستعيد رؤية هذا المنظر مرة أخرى.

– أمتأثر به إلى هذا الحد ؟

– نعم، كان المنظر رهيبا، نظرت من النافذة، رأيت النار مشتعلة فى مقدمة السيارة، ونشبت زاحفة على باقى جسمها، وسائقها – وأظنه صاحبها – يحاول اطفاءها، ولكنه لا يستطيع.

الإشارة فتحت المرور، والكل يسير، وكأن لا شيء يشتعل، النار تزحف وتزحف، فجأة وجدت ملابسه مشتعلة، لم أسر بالأتوبيس كما سار الآخرون، قفزت من أمام عجلة القيادة، الركاب ينظرون إلى من النوافذ يحتجون ويستنكرون وقوفي ونزولي من الأتوبيس، ميدان التحرير تعطلت الحركة به بسبب وقوفي، الركاب يطالبونني بالمسير، حملت مطفأتي وفتحتها على النيران، وكأني أقاوم وحشا كاسرا.

سلطتها - أولا - على الرجل، على كل جسمه، فأطفئت النار المشتعلة به، الرجل لم يكن يدرى أن ملابسه مشتعلة، كل اهتمامه كان منصبا على اطفاء السيارة، ولما وجدها أطفئت، حمدا لله، ووقف جانبا يتنفس الصعداء، لم أنتظر منه كلمة شكر، وعدت إلى أتوبيسي بمطفأتي فارغة.

قال المحقق :

- القانون لا يبيح لك استعمال المطفأة إلا لاطفاء الأتوبيس الذى تسوقه فكيف فعلت ذلك ؟

لم يحزنني إيقافي عشرة أيام وخصمها من راتبي، بقدر حزني الآن لأني لا أعرف من الذى أرسل لي هذا الشيك.

قالت الزوجة مازحة :

كيف لم تعرف؟ أنه المعجب.

هز رأسه مستنكرا، إنها لم تأت بجديد!

حبيب حبيبى

عندما تكونت الدموع فى العينين السوداوين، ارتعشت الأهداب القتالة، فتدحرجت دمعتان على خدود (تفاحية) التكوين، فكادتا أن تزيلا ورود الوجنتين المورنقة، تبعثرت الأنفاس ، ارتفع الصدر الناض وانخفض، فانفتح جانب من فاتحة صدر الفستان الأبيض، فلاح نور الثديين الوضائين، وانفرجت الشفاة (الفراولية) سوف أكتب له أخبره بكل شيء.

اهتزت الأصابع النحيلة بالورقة البيضاء، خطت بعض السطور، لم تسعفها ذاكرتها لتسطر له ما تريد قوله، حاولت مرة أخرى، حبيبى سامى، لا ، لا بل أخى سامى؟ لا لا، صديقى سامى، لا، لا ، مزقت الورقة، ماذا تقول له وبأى صفة تخاطبه، تعلم أنها لابد أن تبدأ خطابها له بلقب، وهى قد استبعدت لقب الحبيب، والأخ، والصديق ماذا تقول إذن ؟ نهضت واقفة فى عصبية .

سرحت، أعلم أنه يحبنى كثيرا وأنا أيضا أحبه ولكن حبى له ليس، جلست على الكرسى متهالكة أريد أن أخبره بكل شيء، أقول

له أننى أتمزق كلما رأيته يتعذب من أجلى.

أمسكت ورقة أخرى همت بالكتابة، ارتعشت يدها بالقلم يا إلهى ذاكرتى ويدى لا يسعفانى بالكتابة إليه، لكن هل كنت أتركه يعانى كل هذا من أجلى، كففت دموعها، خيرا لى أن أموت على أن أدعه يعيش فى هذا العذاب، يا إلهى ماذا أفعل ليته يعرف الحقيقة بدون كتابة.

تذكرت يوم جاءها يبكى، فنظرت إليه وأشفقت على شبابه الذى ذبل ووجهه الذى شحب وتساءلت أين نضرة شبابه، أين فتوته؟ ما هذا الإعياء الذى أصابه؟

– ما فعل بك كل هذا ؟

– أننى أحبك.

– ولكنك تعلم أننى خطيبة مدحت صديقك.

– ولكنك شجعتنى على أن أحبك، أتنكرين، لقد عاملتينى معاملة لا يعامل بها سوى الحبيب لحبيبه.

يومها لم تقوى على أن تقول له أكثر مما قالت له وأشفقت على صحته التى رأتها تتدهور من أجلها، لكن لابد أن تكتب له وتخبره بالحقيقة.

وواتتها الشجاعة وأمسكت بورقة أخرى وكتبت :

حبيبى سامى، نعم أننى أحبك، ولم يكن يمكنى غير أن أحبك لأنك صديق مدحت وسنده الوحيد، ولعلك تتساءل هل من حق أية إنسانة

أن تحب صديق خطيبها والحقيقة لا لقد أحببتك لحبك لمدحت، ولوفائك له، ووقوفك إلى جانبه، أكثر من مرة فى وقت الشدة ولأنك ضحيت كثيرا من أجله وأثرته على نفسك في أكثر من موقف، وسموت بصداقتك إلى درجة الحب فأصبحت حبيب مدحت لذلك أحببتك لحبك له.

طويت الورقة ووضعتها فى مظروف، وقبل أن تغلقه تذكرت شيئا خطيرا للغاية، ربما كان سامى يخلص لمدحت ويقوم بكل هذه التضحيات من أجلها هى لا من أجل مدحت.

عيون خلف الضباب

يلقى قشور اللب من فمه بسرعة مذهلة كأن فمه آلة كهربائية، لاحظت هى نظراتى إليه، ألقت بما فى يدها من لب، تبسمت لى، خشيت أن أبادلها الابتسام وتظاهرت بأننى أكتب، لكننى كنت أختلس النظر إليها من آن لآخر، امرأة حلوة الملامح ثلاثة من الأبناء يلعبون حولهما احتار فكرى، جمالها مهول، ورغم ذلك يرسل زوجها نظراته النهمة للفتيات اللواتى يمررن من أمام العريشة التى نجلس فى ظلالها.

ما أجمل هذه الحديقة العريقة، وإن كانت الحيوانات هى هى من عشرات السنين لم تتغير، الناس - فقط - تتغير عليها، نظرت إلى أبنائهما الثلاثة أكبرهم أحسبه قد تجاوز العاشرة، حضر إلى العريشة مجموعة من الشباب والشابات، يحمل أحدهم طبلة والآخر صاجات دق الأول طبلته وضرب الآخر صاجاته، إيقاع سريع جعلنى أكاد أرقص وأنا قاعد مكانى، جذب أحدهم فتاة من يدها أوقفها وسط حلقتهم فأدت رقصة إيقاعية رشيقة، نظر إلىّ حامل الطبلة

صاح فى زملائه :

- لنذهب إلى مكان آخر حتى لا نعطل الأستاذ عن الكتابة.

أومأت نحوى برأسها.

- يبدو أنه قاص أو شاعر، هز رأسه موافقا.

مرت فتاة حسناء، غرز عينيه فى جسمها، مال إلى زوجته همس فى أذنها، نهض مشى، ابتعد عنا، قالت لأولادها:

- الحقوا بأبيكم ذهب يشترى (أيس كريم)! لا ، لا ، ابقوا هنا فقد مشى بعيدا، أخشى أن يتوه أحدكم.

لزقت الحلوى بيد الصغير نهضت لتصب الماء من (الجركن) على يديه، تركت لعينيى الحبل على الغارب فحامتا حول الوجه ثم زحفتا على كل ما بدا من الجسم.

غاب الزوج، تسرب القلق إلى نفسى، انتابنى خوف لا أدرى كنهه، فكرت أن أبرح المكان، عادت تبتسم لى، جاءت فتاة وجلست معنا، أخذت تنظر إليها ثم تنظر إلىّ نظراتها تحمل أسئلة كثيرة.. مريبة.

جاء الزوج يحمل بين يديه أكواب من الأيس كريم عزم على الفتاة الجالسة بجوارهما وبجوارى أيضا.

بالأيس كريم، شكرته، نظر إلى بامتعاض ثم عزم على أنا الآخر.

عيناه تكاد تخرجان من مقلتيهما وتنغرزان فى جسم الفتاة،

اكتشفت هى انتباهى للرجل والفتاة.

عادت تبتسم لى مرة أخرى، فى ذلك الوقت كان ذهنى مشغولا بحساب فترة زواجهما - هو وهى - من خلال أعمار الأولاد من حولهما، وذهنى يلح علىّ بالسؤال :

- لماذا تسرب الملل إلى طائرين مغردين ؟!

جائزة العمدة

كان فى قريتنا عمدة شابا متعلما، ورث العمدية عن أبيه، وكان الجميع لا يهابه مثلما كانوا يهابون أباه، ولا يلجئون إليه فى حل مشاكلهم، وكان يجلس أمام دواره مثلما كان يفعل أبوه، ويبتسم لمن يلقى عليه السلام ويقول له : تفضل، ويظل يكرر كلمة تفضل أكثر من مرة والشخص الذى حياه يظل يقول له : متشكر حتى يمل من رد التحية.

وكان أبى يقول لى أنا وأخوتى وكنت أنا أصغرهم حيث قربت من سن العاشرة، وكنت أفهم ما يقال وأدرك جيدا ما يدور حولى وفهمت ما قاله أبى لى ولأخوتى عن العمدة: أنه أفندى لا يربط ولا يحل أى لا يعقد اتفاقا ولا يحل مشكلة، فقلت له : سمعت يا أبى أن العمدة خريج جامعة، ضحك أبى ساخراً وقال : الجامعة تعلمه ما فى الكتب أما ما فى الحياة فيعلمه له الناس هذا إذا كان فرغ نفسه لهم، ولم يشغل نفسه بقراءة الصحف والكتب وهو جالس أمام دواره حتى تغيب الشمس.

كان كلام أبى عن العمدة له تأثيراً كبيراً علىّ أنا وأختى جعلنا نكره العمدة وفى يوم شب حريق فى أحد البيوت وكانت تسكنه أسرة فقيرة مكونة من زوج مزارع وزوجته، وابن عمره عشر سنوات، وابنة ثمانى سنوات، حاصرتهم النيران فى غرفة من البيت، وقد تهدم حوائطه بحيث يراهم الناس ولا يستطيعون إنقاذهم ، وصارت الناس تقاوم النار، وتحاول إطفاءها فيلقون عليها الماء الذى يجلبونه من الترعة، فى (جرادل) وأوانى نحاسية أتت بها النساء، لكن كان كل هذا بلا جدوى والنار تقترب من الأسرة المنحصرة وسطها، وجاء العمدة وأخرج من جيبه ألف جنيه وقال : هذا المبلغ جائزة لمن ينقذ هذه الأسرة من النار، فلم يتقدم أحد من شباب القرية أو رجالها ويئست الناس، وصاح العمدة قائلا وقد بدا فى صوته بحة خيبة الأمل : أين نخوة الشباب أين شهامة الرجال؟ فصاح أحد الشباب وهو يخترق صفوف الناس: أنا لها يا حضرة العمدة، واندهش الناس وأنا معهم حينما رأينا الشاب عن قرب أنه حمدان صالح المجند فى الجيش، قال للعمدة : أنا جئت فى أجازة، معى تصريح بثلاثة أيام أقعد خلالهم مع أمى ولمحت النيران عن بعد وأنا قادم نحو البلدة، قال العمدة لك هذه الجائزة إن أنقذت هذه الأسرة ألف جنيه، قال حمدان : اشهدوا يا أهل البلد قال الجميع : نشهد فهيا أينا همتك ومهارات الجيش يا بطل، فأخذ حمدان عصا العمدة ثم رجع إلى الخلف ثم جرى بها نحو البيت المحترق ثم دبها فى الأرض

وقفز بها من فوق النار قفزة عالية أحسست أثناءها أن النار ابتلعته بفمها الواسع ولفت حوله ذراع لهيبها الحمراء ولكنى لمحته واقفا أمام الأسرة المنكوبة، ثم سحب عرقا من الخشب من سقف البيت لم تطله النار ثم حمل الطفلة على ظهره وأمسك بطرف العرق الخشبى من بدايته وثبت الطرف الثانى فى الأرض وطوح العرق فألقاه هو والطفلة خارج النيران، فأخذ العمدة الطفلة وضمها بين يديه ثم جرى حمدان بالعرق وثبت طرفه فى الأرض وطوح به وقفز به قفزة كبيرة تخطى بها النيران، وصار واقفا أمام الأسرة فخطف الطفل وحمله على ظهره وقفز بالعرق الخشبى كما فعل فى المرة الأولى ثم وضع الطفل بين يدى العمدة، فضمه إلى صدره بحنو ثم قفز حمدان بالعرق الخشبى إلى داخل البيت ووقف أمام الزوجين، وحمل الزوجة على ظهره وقفز بها قفزة كبيرة مثل القفزتين السابقتين وأخرجها من النار ثم وضعها أمام العمدة فالتففن حولها النساء، ثم فعل حمدان ذلك مع الزوج وأنقذه من النيران فكبر الناس، وهتفوا بحياة الجيش ورجاله، وبشجاعة حمدان الذى أنقذ الأسرة كلها من الحريق وكانت وسيلته القفز بالعرق الخشبى، التف الناس حول حمدان وربت العمدة على كتفه محييا وقال :

– إليك الجائزة يا بطل ألف جنيه وألف أخرى لمهارتك وشجاعتك لقد حسبتنى أمام أحد أبطال القفز بالزانا العالميين.

فأمسك حمدان الألفين جنيه وصاح فى الناس قائلا :

– اسمعوا يا أخوانى ويا إخوتى لقد أعطانى ألف جنيه جائزة وألف أخرى مثلها وأنا قد تنازلت عن هذه الجائزة والألف الأخرى للمساهمة بهما منى لإعادة بناء بيت هذه الأسرة المسكينة، الذى هدمته النيران، فقال العمدة :

– يا بنى خذ جائزتك وأنا إن شاء الله سيكون لى شرف إعادة بناء بيت هذه الأسرة وإيوائهم فى بيتى حتى يتم البناء، قال الفتى :

– ولكنى أريد أن أسهم معك فى هذا الشرف ولا أملك إلا هذه الجائزة.

قال الأهالى أبناء البلدة : ونحن جميعا سيكون لنا شرف الإسهام فى إعادة بناء بيت الأسرة المنكوبة وصار كل منهم يضع أمام العمدة ما يستطيع من نقود والنساء يخلعن مصاغهن من حلقان وغوايش، فقال العمدة :

– يبدو أن قريتنا هذه لم تنجب البطل حمدان فقط بل أنجبت آلاف الأبطال، فقال حمدان :

– اعلموا يا إخوانى، أنى لن أخذ جائزة العمدة لأن جائزتى الحقيقية أن بلدنا لها عمدة نبيل مثل هذا، ووضع يده على كتف العمدة الذى ضمه إلى صدره وكأنه ابنه.

ومنذ هذا اليوم تغيرت صورة العمدة فى عينى أبى وأعيننا وأعين كل أهل القرية.

الجمال والعصا

لا يكاد يصدق أنه عاد، تحسس جسمه، ارتشف الهواء، بحب وسعادة.

ما أصعب أيام الغربة، وما أطول ليال البعاد، عادت روحه إلى جسده حين رأها، إنها بلدته الجميلة التى كان يشعر بالعدم وهو بعيد عنها، أحس أنه بعث من جديد وفتاته الجميلة تقف أمامه، صافحته بيدها الرخوة البضة، قبض بيده على يدها ، خيل إليه أنه فى حلم، وليس ما يحدث حقيقة، حركت أصابعها فى يده، سحبت يدها بحنو، تبسمت ابتسامتها المضيئة التى تعودت أن تلهب بها قلبه، قالت :

– أتخشى أن أهرب منك؟، ما فعلتها وأنت غائب، جاءنى عرسان كثيرون.

قال ممتنا:

– أعلم أن الجميلات أمثالك يجذبن قلوب الشباب.

قالت مفاخرة :

– بل، قل يحرقن قلوبهم، وأنت غائب تقدم للزواج منى: مهندس، وطبيب، ومحام، وأستاذ جامعى، وبحار، وضابط شرطة وتاجر، كلهم يملكون الثراء، والشباب، ألقوا بقلوبهم وما يملكون تحت قدمى، رفضتهم جميعا من أجلك، كنت تذكرنى بارتباطى بك، بخطاباتك الكثيرة التى كنت ترسلها مع هداياك.

قال أبوه :

– لماذا يا ولدى سافرت، ولم تغربت؟ أرسلت هدايا بكل ما عملت به فى الغربة إلى تلك الفتاة الجميلة.

قال الفتى :

– لا يغلى على خطيبتى الجميلة شىء يا أبى فهى لا يحلم بالزواج منها أصحاب الملايين، لقد عملت كل شىء من أجلها، لأوفر لها ما يجعلها تفضلنى على من تحترق قلوبهم شوقا لها، تلك الجميلة الساحرة رضت بى أنا الموظف البسيط، وأشاحت بوجهها عن الأثرياء.

قال الأب :

– يابنى أنت بخصالك الحميدة، وشبابك، وفتوتك، تجعل كفتك ترجح كفة هؤلاء، إن كانوا لا يملكون هذه الخصال التى تمتلكها.

قال :

– الجميع يحسدوننى لأنى سأتزوج فتاة بكل هذا الجمال.

قال الأب :

- يابنى، الجمال برغم أنه نعمة فهو على الزوج نقمة.

- كيف يا أبى ؟

- سيجعلك تغار من كل من ينظر إليها، وتقع فى العديد من المشكلات.

- عفوا يا أبى فإنى أختلف معك فى هذا الرأى، إن زواجى من تلك الجميلة نعمة، أية نعمة، سيجعلنى أشعر بالسعادة طوال حياتى.

- يا بنى إن كنت فاعلا، لا محالة، فحاول أن تتحكم فى تصرفاتك واكبح جماح نفسك، واطرد الذباب عن حلوتك برفق وحكمة.

- سأفعل يا أبى.

ظلت كلمات أبيه تتردد فى ذهنه بعد أن تزوج، وفى هذه الليلة بالذات طرقت رأسه بمطارق حديدية، حين خرج مع عروسه للتنزه، دخلا (كازينو) وأجلسهما (النادل) حول ترابيزة تتوسط المكان، فى الحال رأى مئات من العيون النهمة تخرج من مآقيها تحوم حول زوجته، ازدادت طرقات كلمات أبيه على رأسه بمطارقها الثقيلة : (اطرد الذباب عن حلوتك برفق وحكمة)، كيف يا أبى أطرد هذه العيون النهمة الكثيرة عن وجه زوجتى وجسدها؟! هاتان العينان الواسعتان اللتان يجلس صاحبهما عن قرب ويحملق بهما فى وجه

زوجتى، ولا تغمض أو تسبلا قليلا.

قالت :

أترى هذا الشاب الذى ينظر إلى مبحلقاً، ذلك الذى يجلس قريبا منا، إن له عينين جميلتين ساحرتين، إنه يبتسم لى غير عياب، هو معذور فلن يستطيع إلا أن ينظر إلى، فمن الذى يقدر على مقاومة جمالى حين يرانى ولا يبحلق فىّ مبهوراً!؟

أثارت كلماتها نخوته، جرحت كبرياءه، هب واقفا، تقدم من الشاب، صاح فى غضب :

– أتنظر إلى زوجتى محملقا، وأنا جالس معها ألا تستحى؟! أغرتك عيناك الواسعتان الخضروان؟ إذن سأفقأهما لك.

لكمه لكمة، قوية فى وجهه أوقعته من فوق كرسيه على الأرض، اقترب منه استعداداً لاعطائه لكمة أخرى إن هو حاول أن يقاوم.

اصطدمت عيناه بفعل غريب، الشاب يحرك يديه فى الأرض يتحسسها، أدهشه وجود عصا ملقاة على الأرض بجوار الشاب .

الشاب مازال يحرك يده فى الأرض يتحسسها، اندهش لهذا الفعل، سمعه يقول : العصا من فضلك.

تأكد أنه كفيف، أحس بغصة فى حلقه، مادت الأرض تحت قدميه، حار ماذا يفعل؟ رفع العصا من الأرض، وأخذ بيد الشاب وأجلسه على كرسيه اقتربت منهما زوجته ، قالت :

– لماذا تضربه؟ إذن عليك أن تضرب الناس جميعا، فمن يرانى لا يملك إلا أن ينظر إلى مبهورا، هذا قدرى لأننى جميلة، جميلة جداً، اهتزت العصا فى يده، لوح بها فى الفضاء كادت تصطدم بها، سحبها بسرعة، وقدمها للأعمى وهو يقبل رأسه معتذراً.

البحث عن العصا

مـا كادت سـيـارات (المكروباص) تتـوقف عن السـيـر وتتـخذ لهـا مكانا أمام المسجد المتصدر للحدائق حتى هبط منها مجموعات من الشبان والشابات، والأطفال وهرول الجميع إلى الحدائق فرحين.

– قال السائق البدين: بعد أن هبط من سيارته وأغلق باب القيادة بعنف مـوجـهـا كـلامـه لشـابين تخلفـا عن زمـلائهـمـا بعـد أن تبـادلت حقائبهما لتوحدها فى اللون.

– من يـلاعـبنى (طـاولة) إننـى بطل هـذه اللعـبـة فى حى بولاق.. واسألوا عنى؟

– قال أحـد الشـابين بـعد أن تحـسس ياقـة قمـيصـه المشـجر ثم طاف بيـده على سـرواله ونفض عنه الغـبـار ثم رفـعـهـا إلى شـعـره المسترسل على قفاه وأخذ يسويه.

– جئنا الرحلة ليس لنلعب بطاولة ولكن..

– قال السائق البدين :

– ولماذا جئت إذن؟ لا يوجد فى القناطر حيوانات للمشاهدة، إنها

رحلة مجالسة ومؤانسة.

– فعقب الشاب الثانى قائلا :

– كيف تقول أن القناطر الخيرية ليس بها شىء للمشاهدة ؟

– إن بها الماء والخضرة والوجه الحسن.

– ويهمنى من هؤلاء النوع الثالث !

انتشر الجميع فى أماكن متفرقة بعضهم اعتلى ربوة خضراء والبعض الآخر أخذ أفراد أسرته واجتنب بمكان منخفض ليتناولوا طعامهم.

– قالت الفتاة ذات الوجه البرونزى وهى ترسم على شفتيها بسمة كبسمة (الجوكندة).

– هذه الملاءة التى تفترشونها إيجارها عشرة قروش! ويمكنى أن أمددكم بالماء طوال فترة تواجدكم هنا.

– أجابتها فتاة لم تشاء أن تجلس.

– سوف ندفع لك قبل موعد رحيلنا، ثم ضربت شابا يقف بجوارها على ذراعه برفق وقالت :

– أليس كذلك يا مدحت..؟

فأومأ بالإيجاب، قالت صاحبة الوجه البرونزى.

– ومتى ترحلون ؟

– قبل الغروب، لكن دعينى أسألك أتمطر السماء هنا؟

– قالت : الجو صحو، هنا دائما الشمس تحتضن كبد السماء وترسل الدفء للجميع القناطر شهيرة بدفئها.

– صاحت الفتاة الواقفة.

– الكورة ارتطمت برأسي يا سميحة.

– معذرة فالذى قذفها أحمد وليس أنا، هو يدعى أنه يجيد لعبة (الراكت) وضرباته كلها طائشة.

– كادت الكورة تخلع الباروكة من رأسى وتطيح بها، لكن الله سلم.

مرق شاب بدراجته فكاد يصدم سميحة، فجرت خلفه لتمسكه وتعاتبه.

كخلية النحل تمام تبدو القناطر الخيرية، مئات من الشباب والشابات جاءوا فى أفواج نظمتها مؤسساتهم التى يعملون بها، بالإضافة إلى الأطفال الذين اصطحبهم آباؤهم أو بعض الأحبة الذين جاءوا للتنزه للحصول على الدفء.

– طوقت عنقه بذراعيها وقبلته ثم قالت :

– أتحبنى كثيرا؟ يا أبت ؟

– قال : ليس هناك فى هذه الدنيا حبا يعادل حبى فأنت زهرة حياتى التى يسكرنى أريجها، أنت مصباح دنياى المظلمة، الذى يهدينى ضوءه للسير فى طرقاتها المتعثرة.

فعندما تبتسمين، تشع بسمتك ضوءا ينير سمائى الحالكة ويقشع غيامها وجهك بدر سمائى حينما تبتسمين، وصوتك مرسى رجائى حينما تتحدثين، وضحكتك ذهبية الرنين توثقنى بخيوط نورانية وتلقى بى فى فردوس ملئ بالأزهار وشقشقة العصافير وعبير الرياحين.

انفرجت شفتاها عن بسمة مضيئة.

مرت فتاة متأنقة فى ملابسها من أمامهما، فنظر إليها متفرسا فيها انسلت هى من بين ذراعيه ببطء، ثم غيرت من وضعها وجلست على ركبتيه وأسندت ظهرها على صدره وأخذت يده وضعتها على خدها بحنان وقالت :

– أكل هذا أنا.. يا أبت؟

– أجاب مؤكدا :

– نعم فأنت دنياى والأمل الذى يدفعنى لمصارعة كل قبيح فى الحياة حتى تصير الحياة كلها، جميلة مثل وجهك ورقيقة مثل رقتك، أنت حبى كل حبى.

– قالت الصغيرة:

– لكن إذا كنت تحبنى كل هذا الحب، ماذا ستعطى زوجك حينما تتزوج أتعيش معها بلا حب؟.

– إذا أنت أذنت لى سأعطيها قطرة من بحر حبك.

– سأذن لك لكن ألم تكن تحب أمى.

اصطدمت كرة برجله فانحت صاحبتها لتأخذها من قرية فصاح على الفور .

– نعم.. أحبها.. أحبها.. ابتعدت عنه الفتاة بعد أن رمته بنظرة مصحوبة ببسمة ذات مغزى فأكمل ببطء كنت أحبها..

– منذ البداية أو بعد أن أتيت أنا..؟

– قبل البداية أى قبل أن أتزوجها وبعد أن أتيت أنت..

– ولكن كيف تحب أمي وتحبنى فى آن واحد ؟

يقولون إن المرء لا يمكنه أن يحب اثنين فى ذات الوقت.

– كنت أحتفظ لك ببحر الحب وأعطيها هى قطرات من هذا البحر.

قطرات فقط، سرح لسنين خلت أحبت ابنته فى نفسه صور الماضى تراءت لعينيه بما فيها من أحداث تراقصت أمام عينيه أحدها حاول أن يغمض عينيه عنها، لكنها تشبثت بهما.

– أما زلت تحتفظ لأمى بهذه القطرات من الحب ؟

أم ضننت بها عليها بعد أن طلقتها؟

– ضحك مقهقها ثم أجاب ؟

– لا احتفظت بكل حبى لك أنت أما هى فلديها زوجها الآخر فليعطيها ما يشاء من حب.

– قالت : زوج أمى، رجل طيب.

– ربما يكون كذلك، وهذا ما أرجوه من أجلك.

– أنت أعظم رجل فى العالم.

– وأنت أجمل فتاة فى العالم.

– قبلته فى خده ثم قالت :

– زميلاتك فى العمل جميلات، هيا اختر منهن عروسا.

ذكرته بفكرية تلك الفتاة الجميلة، إنها هنا فى القناطر ضمن المشتركات فى الرحلة، لقد عرض عليها الزواج ولكنها ترفعت، وادعت أنه، لا يستوى معها فى المؤهل، هى حاصلة على مؤهل عال، أما هو فقد توقف عند الحصول على المؤهل المتوسط، وجذبته هواية الأدب والكتابة فألقى بكل أوقات فراغه على مرسى تلك الهواية، لم يصدم لرفض فكرية الزواج منه برغم أنها لا تفتأ تشاغله وتبتسم له كلما ألتقت به فى العمل، أو خارجة ولأنه عرض فكرة الزواج هذه على أكثر من زميلة له، كلها باءت بالفشل.

كان هناك فروق دايما بينه وبينهن.

أما فى المؤهل أو فى السن أو فى المستوى المالى لأسرهن وأسرته، الفتاة تريد أن تتزوج من مؤهل وليس من الإنسان، كلهن ينظرون إلى أعلى لا إلى مستوى أبصارهن أو إلى أقل من مستوى أبصارهن، فتيات آخر زمن، زفر أنفاسه متألما آسفا على حظه العاثر ثم تمتم.

الشمس ساطعة، والأحبة فى كل مكان..

من يجلس مع خطيبته، ومن يجلس مع زوجته.

الدفء حولى وأشعر بالصقيع، قالت الصغيرة:

- آه لقد ضبطك تنظر إلى تلك الفتاة ذات الرداء الأحمر الجالسة على الربوة المقابلة لنا من آن لآخر!

هى ليست جميلة، لكنها لا بأس بها تزوجها أو أنت تريد، عروس أجمل منها ؟

قال :

- لقد جئنا فى هذه الرحلة لنستمتع بشمس القناطر الدافئة وليس لاختيار عروس .

- قالت : القناطر ليس بها سوى روابى خضراء وأناس يفترشونها وبضع حدائق يتجول بها الشبان والشابات.

أطرق يفكر، ما الذى يتدثر به بعد أن عرته ثم قال لنفسه :

- هى أيضا تبحث عن الحب.

الأميرة ست الحسن والجمال

تتحرك على الربوة كعصفور جريح تأله جراحه الدفينة، فيهتز الجسد النحيل اهتزازا غير منظم، تقترب منه ثم تبتعد قليلا.، احتواها ببصره، دمعت عيناه إشفاقا عليها.

تذكر لحظة ذهابه إلى المدرسة ليدفع قيمة الاشتراك فى هذه الرحلة سألته الناظرة :

– أتريد أن ترافقها وأين أمها؟ أهى على قيد الحياة ؟

لاذ بالصمت، أحس بسخونة وجهه الذى لاح فى زجاج دولاب على يمين حضرة الناظرة خيل إليه أن وجهه علاه الاحمرار، وطافت به مسحة من الحزن.

قالت :

– لقد فهمت ، قواك الله على تربيتها.

الشمس تنشر شعورها الذهبية ، فتكسو بها الروابى والجالسين عليها برداء براق، قال فى نفسه يجب أن أحادثها وأدخل السرور إلى قلبها ، قال :

– الجو مشمس، أليس أنت دافئة ؟

– نعم ! لكن لماذا يجلس الأطفال مع أماتهم؟

لا يبتعدون عنهن، أمهاتهم تعطيهم الطعام والشراب.

– يمكنك أن تأخذى الطعام وتجلسين معهن إذا أردت.

– لا، لن أذهب! لا يصح أن أجلس مع أمهات أخريات غير أمى.

– إذن أنت لا تدركين أننى أبوك وأمك فى ذات الوقت.

– لم أعتقد غير ذلك.

أراد أن يشعرها بما أحاطها به من رعاية وحنان ويذكرها بما ابتاعه لها من ملبس ثمين وطعام شهى.

لكنها برغم كل شىء ماتفتأ تذكر أمها، إنه يأسف لأنه لم يمكنه أن يملأ فراغ قلب ابنته الصغيرة بحنانه وحبه أكثر من أسفه.

على أنه لم يوفق إلى عروس.

– مد يده إلى حقيبة جلدية وأخرج منها طعام وأخذا يأكلان قضمت من الطعام قضمة ثم نظرت إلى يسارها حيث تجلس سيدة يلتف حولها، أطفالها ويتناولون، الطعام.

– هذه الأم طيبة جدا يا أبى، انظر إليها وهى تطعم أطفالها وتوزع عليهم الطعام، خاصة ابنتها الصغيرة التى تقاربنى في العمر وتجلس بجوارها تماما، غالبا أن الأم تحب هذه الابنة كثيرا .

– هذه الأم الطيبة جدا يا أبى لقد أعطت ابنتها بيضة أخرى.

- خذى يابنتى بيضتين.

- لا يا أبى لا أقصد ذلك، ما قصدت إلا أن استرعى انتباهك إلى هذه الأم الطيبة التى تحب ابنتها جدا، أبى لماذا طلقت أمى؟

- توقفت اللقمة فى حلقة، عادت صور الماضى تترائى لعينيه، برزت منها صورة بغيضة إلى نفسه حين قالت زوجته :

- لا يمكننى أن أواصل الحياة مع رجل يظل مكباً على مكتبه حتى منتصف الليل، بحجة أنه يكتب أدب!

حتى عندما انقطع التيار الكهربائى وأطفئ النور، أضاء شمعة ليواصل الكتابة ويرغمنى على السهر معك..

تذكر أنه لم يرغمها على السهر، كان يتركها نائمة ويصنع لنفسه الشاى والقهوة لكنها كانت دائمة المشاكسة والعراك.. استعادت أذناه شجارها، أنا لا أعترف بك كأديب!

ولا أعترف بكتابتك وكل من يقرأ لك فهو مجنون وإن كان عاقلاً فسوف يجن لأنه سيقرأ خرافة، وجنوناً، ولهذا فإننى أرحت الناس مما كتبت وأحرقت كل خرافاتك..

- أحرقتها..؟

- نعم، وإن كتبت مرة أخرى فسوف أقوم بنفس الصنع، وما أسهل وجود الثقاب والكيروسين.

- حار ماذا يفعل معها، وكيف يمكنه إعادة كتابة هذه الأعمال

التى حرقتها وبها قصة كان قد تعاقد مع الناشر على طبعها، أظلمت الدنيا فى عينيه وملأه الغيظ حتى هام بصفعها لكنه أقلع عن ذلك، وكظم غيظه.

– عليك أن تختر بينى وبين الكتابة وإذا عودك حنينك إليها فلن أمكث فى البيت لحظة واحدة وإذا رأيتك تجلس إلى المكتب، لم يكن يمكنه أن يترك الكتابة، إنها شىء فى دمه، طلب منها أن يتنازل كل منهما عن شىء من أجل ابنتهما لكنها قالت :

– سأتركها لك، وتكفيك هى والكتابة، أما أنا فسوف أتزوج خيرا منك فإذا كان لديك شىء من الشجاعة فطلقنى.

أكمل مضغ اللقمة، ثم ابتلعها بصعوبة.

– هذه أقدار يا بنتى، وكثر من الناس يحدث لهم ذلك الطلاق.

– توقفت عن تناول الطعام وقالت وقد ملئت الدموع عينها.

– ألم تخرج يا أبى فى رحلة مع أمى ..؟

ألم تأتيا إلى هنا فى القناطر الخيرية ؟

– توقفت اللقمة مرة أخرى فى حلقه ولم يقو على مضغها ثم أبصر دموعها فانفطر قلبه، وأسرع بإخراج منديله من جيبه والتقط يده دموعها.

ثم قال متظاهرا بالسخرية من بكائها.

– مــــا هذا، أتبكين، مما لا شىء، إذن أنت تريدين أن تمطر

السماء وتبلل ملابس الناس فأنت تعلمين أنك أميرة الأحلام، الأميرة ست الحسن، والجمال التى إن بكت تمطر السماء وإن ضحكت تشرق الشمس، انظرى الشمس قد توارت منذ أن بكيت أرجوك، كفى عن البكاء واضحكى حتى تشرق الشمس ثانية أو تريدين أن يعود الناس إلى بيوتهم من هذه الرحلة ملابسهم مبللة.

ضحكت لحديث أبيها رغم الدموع التى تترقرق فى عينيها، ثم قالت :

- انظر يا أبى إلى هذه الأم الطيبة إنها تمسح يدى ابنتها بالمنشفة، إنها طيبة للغاية تشبه أمى تماما، طيبة مثلها.

أمى كانت طيبة أليس كذلك يا أبى ؟

- حار كيف يجيب، لم يكن تعود على أن يذكر أمها بسوء، أمامها حتى لا تغضب.

- نعم يابنتى، أمك كانت طيبة ؟

ويكفيها أنها أنجبتك أنجبت أجمل عروسا.

- اختر لك عروس يا أبى من زميلاتك المشتركات فى هذه الرحلة، إنهن جميلات حقا.

حركت الأمنية التى تتحرك فى داخله ثم أكملت اقترحها.

- ما رأيك فى التى مرت أمامنا ونظرت إليك وابتسمت يبدو أنها معجبة بك، تزوجها يا أبى تزوجها.

– هل لك أن تركبى دراجة ؟

أأستأجر لك واحدة فى استطاعتى أن أعلمك ركوبها ؟

– أبت بحجة أنها ليست صغيرة على ركوب الدراجة وقالت :

– لقد مضى من عمرى عشر سنوات وأصبحت عروس كما كنت تقول لى دائما .

– إذن نلعب سويا بالكرة التى ابتعتها لك من برهة، أبت تنفيذ هذه الفكرة أيضا عرضت عليه أن يسابقها العدو فوافق على الفور، وأخذت تحدد نقطة بداية السباق ونقطة نهايته ثم سألته إن كان هذا يروقه أم لا ؟ فأجاب :

– إنه لا يروقه إلا ما يروقها فابتسمت راضية، ثم قالت :

– لا حرمنى الله منك يا أبى ثم التفتت إلى يسارها.

– انظر يا أبى إلى هذه الأم الطيبة وإلى صنيعها مع ابنتها التى فى مثل عمرى أنها تداعبها يبدو أنها تحبها كثيراً أمى أيضا كانت تحبنى يا أبى وكثيرا ما كانت تداعبنى مثل هذه الأم الطيبة التى تداعب ابنتها .

– لا عليك يا ابنتى هل نسيت السباق ؟

– أم تريدين الانسحاب ؟

طرأ عليها الابتهاج.

وصاحت.

– كلا إنت مستعدة هيا!

جريا سويا حتى وصلا إلى إحدى الروابى.

وأخذ الأب يتقمص شخصية المهرج ويأتى بحركات مضحكة وهو يجرى ليدخل السرور إلى قلب ابنته، ولم يأبه بسخرية زملائه وزميلاته المشتركين معه فى الرحلة وهم يرونه يجرى بطوله الفارع مع ابنته الصغيرة.

انتهيا من السباق ولم يشأ أن يسبق ابنته ولم تشأ هى أن تسبقه وأخذ يلهث أنفاسه متظاهراً بالتعب ويأتى بحركات مضحكة فضحكت واستغرقت فى الضحك ثم نظرت إليه وهو يلهث وقالت :

أتعبت من قطع هذه المسافة القصيرة عدوا يا أبى، إذن أنت عجوز.

– فصاح على الفور مهرجا..

– لا .. لا .. أنا شاب شاب جدا.

وأخذ يطرق بيده على صدره مفتخرا بشجاعته مما أضحك الطفلة.

جلست بجواره على الكليم الصوف الذى أحضره من البيت ثم قالت :

– أبى انظر هذه أم أخرى تجلس بجوار ابنتها أتصدق يا أبى أن الابنة الأخرى تقاربنى فى العمر أيضا .. ؟

هل لو تزوجت أنت يا أبى وخرجنا سويا أنا وأنت وزوجتك إلى رحلة مثل هذه الرحلة هل تجعل زوجتك تجلسنى بجوارها وتعاملنى مثل هذه الأم الطيبة ما تعامل ابنتها ؟

غاص نصل الكلمات فى قلبه، فضمها إلى صدره بعنف.

- أنا أبوك وأمك يابنتى، كل حبى لك، كل حياتى لك.

وانحدرت دمعتان من عينيه على وجنته لم يقو على اخفائهما وأبصرت الفتاة دموعه..

- ما هذا يا أبى أتبكى ؟

إذن أنت تريد أن تمطر السماء، أتود أن ترجع الناس إلى بيوتها مبللة الثياب ؟

وانتزع ضحكة بصعوبة ارتسمت باهتة على شفتيه ودموعه مازالت مسترسلة .

أنا.. وضميرى فى الأتوبيس

ركب الأتوبيس وهو خالى الذهن من أى شىء سوى الوصول إلى مكان بين الكتل البشرية المتراصة داخل الأتوبيس، وبجهد جهيد أمكنه أن يصل إلى مكان بجانب السلم وقف فيه.

ركبت خلفه فتاة صغيرة، جميلة تحمل تحت إبطها كتبا، يبدو أنها جامعية، انتزعت جسدها بصعوبة من بين الأجسام الواقفة على السلم ودلفت داخل الأتوبيس، أرادت أن تشق طريقها إلى الداخل وتستند على أحد المقاعد، وتبتعد عن الباب وزحامه، ولكنه وقف فى طريقها بجسده الضخم فأجبرها على الوقوف بجانبه ثم التصق بها، فتأففت وزفرت أنفاسها بحنق، وأرادت أن تنسل من هذا المكان المزدحم وتبتعد عن هذا الشخص الـ ... لكنه ضغط عليها بجسمه فلم يمكنها أن تفلت.

ثم مد يده وتظاهر بأن هذا بغير قصد، ولمس بها جسمها. فنظرت إليه نظرة تشع غضبا واشمئزازا، فتظاهر بعدم الاهتمام بما حدث، فانتفض الغضب فى عينيها وهب يرفع يدها لتهوى بها على

وجهه صفعا، ثم تراجعت خشية أن تثير الانتباه لكنها عادت تأكد لنفسها بإن جميع الركاب قد شاهدوا ما حدث ثم غاصت فى بحر الاستحياء وأخذت تتلفت إلى يمناها ويسراها وتتسلل إلى أعين الناس لعلها تدخل إلى أعماقهم فتعرف ما يقولونه عنها فربما يظن أحدهم بأنها راضية عما حدث.

ووقف الأتوبيس على إحدى المحطات فنزلت مسرعة ووجدت أنها محطة أخرى غير التى تبغيها لكنها فضلت أن تقطع المسافة إلى بيتها سيرا على الأقدام فأخذت تسير وهى لا ترى طريقها فقد ألبسها الخجل رداءه القاتم فحجب عينيها عن رؤية معالم الطريق. وراحت تتعثر فى سيرها وأفكارها تتماوج برأسها وتصطدم فكرة بأخرى، وأطلت إحدى هذه الأفكار عن رأسها صارخة: لو أنها تقابلت مع هذا الشخص مرة ثانية وتعرفت على شخصيته لصفعته على وجهه أدبا على فعلته الوقحة يا إلهى فجأة سمعت صوتا يناديها من خلفها.

– يا آنسة.. يا آنسة.. أنا آسف.. لم أكن أقصد أن يدى. وصرخت فى أعماقها إنه هو !! لم يكفه فعلته اللعينة فجاء يسير خلفها!! ياللوغد.

– اذهب من خلفى أيها الشاب، وكفى فعلتك التى فعلت.

– إننى لا أسير خلفك لأغازلك ولكننى جئت أعتذر! قال هذا وقد

ظن أنها ستقبل اعتذاره وتغفر له فعلته، بل تطرق إلى ذهنه أنها ربما بعد أن تصفح عنه تتركه يسير معها ويصيرا صديقان!! لكنها قالت:

– إنك لم تسر خلفى لتعتذر، لأنك لم تشعر بالأسف ولم تشعر بأنك إنسان قط فأجاب:

– بل إننى بعد أن لمست يدى أحد أعضائك عفوا شعرت بالأسف ونزلت من الأتوبيس خلفك لأقدم لك اعتذارى، قالت : تقول إنك لمستنى عفوا، لا أنه ليس عفوا.

– بل سولت لك نفسك الرديئة فعل ذلك، واستغليت زحام الأتوبيس وفعلتها فوالله لولا الزحام ما كان يتسنى لك أن تلمسنى بيدك القذرة ولو ظللت تحاول مائة عام، لكنه الزحام ألا لعنة الله على المواصلات وزحامها فقال متظاهرا بالغضب:

– قلت لك إننى لمستك عفوا، ولقد اعتذرت لك، فالأجدر بك أن تتقبلى اعتذارى وأسفى .

– اعتذارك وأسفك، إنك لم تأسف، ولم تشعر قط بالأسف بل إنك لم تشعر بإنسانيتك حين فعلت هذا، لم تشعر أننى أختك فى الإنسانية، ولم تفكر أن فى الامكان أن شخصا مريضا مثلك يفعل هذه الفعلة مع أختك أو زوجتك أو ابنتك أو ربما حتى أمك لقد فعلت ما فعلت وأنت بلا شعور، وبلا ضمير، وصاح عندما سمع كلمة (ضمير) .

- لا .. لا .. أنا لى ضـمـيـر، نعم لى ضـمـيـر مـلازمنى دائمـا لا يفارقنى قط، وهنا ظهر شابا أنيقا فجأة أمامه وقال محتجا :

- لا .. أنا لست معك.

- من أنت ؟

- أنا ضميرك، الذى تدعو إنه معك.

- ولكنك معى دائما.

- لا إنك تغافلنى وتفعل ما لا يصح أن يفعل، وكثيرا ما أفهمتك أننى صاح، ولست بنائم، ولست غافلا عما تفعل.

- يا صاحبى إننى فى ورطة، فدعك من العتاب الآن وأسدى إلى النصح وأخبرنى ماذا أفعل ؟

- يجب أن تنال عقابك على فعلتك هذه.

- لا تكن قاسيا.

- إذا أردت أن أكون معك، فيجب أن تنال عقابك، أو تريد أن تكون بلا ضمير.

- لا .. لا .. أخبرنى إذا عما أفعله ؟

- يبدو أن الفتاة قد اقتربت من بيتها الآن لأنها تتلفت فيما حولها وتكاد تذوب خجلا بسبب يرك معا، فعليك الآن أن تستفزها.

- استـفـزها !!؟ لكنهـا سـتـسـغـيث بالشـرطة وربما بالأهالى فيضربوننى.

- سوف تنال عقابك وهو المطلوب فتقدم من الفتاة وصاح .

– إنك لم تساو شيئا فعلا ما هذا الغرور ؟ فصاحت الفتاة قائلة:

– يا على، يا على، فهرع إليها شاب آتيا من جانب الطريق وسألها :

– ما بك ؟ ، ومن هذا الذى يحدثك فى الطريق ؟

– أنقذنى يا أخى، إنه أحد المرضى الذين يلتصقون بالنساء، فى الأتوبيسات لم يكفه مضايقته لى فى الأتوبيس فجاء يسير خلفى، فصاح أخوها وقد وجه وجهه شطر منزله وقال :

– يا إبراهيم، يا إبراهيم، تعال، هذا شاب يضايق أختنا فعلينا أن نأدبه ونزل شاب مفتول العضلات وتعاون مع أخيها فى ضرب صاحبنا وظلا يضربانه بأيديهما وأرجلهما فأخذ أحدهما يكيل له اللكمات والآخر يركله بقدمه حتى أنهكاه وخارت قواه فوقع على الأرض فتركاه كومة على جانب الطريق، وتقدم منه الضمير ومسك بيده يساعده على النهوض وهو يبتسم فصاح فيه .

– لقد ضربانى ضربا مبرحا، فأجاب الضمير:

– جزاء وفاقا، فقال :

– هذه مشروتك، أنل كل هذا الضرب من أجل..

– نعم من أجل أن ارتاح، ألا تحب أن تكون مرتاح الضمير ؟ فأجاب :

– نعم .. نعم .. أنا لا أبتغى فى هذه الحياة إلا أن أعيش مرتاح الضمير .

أنا.. وضميرى والفاكهى

لا أعلم أن هناك شخصا يتجسم له ضميره، ويظهر له بصفة إنسان يقف أمامه ويأمره بما يريد سواى.

وإن كان الموضوع بسيطا، لا يستأهل أن يتحكم فى هكذا، ويلقى بى إلى التهلكة، أنا من طيبة قلبى أطيعه، وأمضى فيما يأمرنى به، لكنى ألاقى فى سبيل طاعته الأذى، فمرة أضرب، ومرة أسجن، ومرة أشتم، وكل هذا ليستريح هو، أقسم أنى لم أسمع أن مخلوقا، مهما كان نوعه يستريح لأذى إنسان مثل ضميرى هذا، الذى يريحه ويسعده ما ألاقيه من الناس، من إهانة بفضل نصائحه التى تمجها نفسى.

آه، من أنت ؟ أظهرت ثانية، ماذا تريد ؟

– أريد أن تتدخل بين الفاكهى و(الزبون).

– مالى أنا بهما؟

– يجب أن تفعل وإلا..

– وإلا، ماذا.. هه ؟

– وإلا سأتركك، وتعيش بدونى.

– لا ، أرجوك، سأفعل ما تريد، وإن كنت تعلم أنى قاطعت بائعى الفاكهة منذ أمد بعيد، ليس هذا بخلا منى، أو رغبة منى لأحرم أولادى من الفاكهة، أو أننى أكرهها، بل إننى يسيل لعابى كلما مررت على بائع فاكهة، ونظرت إلى ألوانها المختلفة، لكننى منذ الحادثة إياها، لا اشترى سوى أدنى أنواع الفاكهة (الخيار) ، وحينما أرى بائع فاكهة متجولا، اقترب منه وأقلب بيدى بضاعته حتى أظهر المخبوء فيها من فاكهة فاسدة، حتى يراها الناس، ويميزوا بين الفاسد منها والصالح قبل الشراء، ثم أترك البائع، دون أن اشترى منه، مما يجعله يغتاظ، ويكاد يفتك بي، لكنى كنت أحرص على الابتعاد عنه بأقصى سرعة، ليس جبنا منى، لكن المثل يقال : (من خاف سلم) وعادة تقليبى الفاكهة دون أن أشترى منها ليست وليدة طباعى أو ورثتها من ولدى، لكنى اكتسبتها بعد حادثة تعرضت لها مع بائع فاكهة، حادثة فتى لا أنساها أبدا ما حييت.

فى صباح يوم كنت أسير فى السوق، ويممت وجهى نحو بائع فاكهة لامارس عادتى معه فى تقليب فاكهته المتراصة على عربة أمامه، كانت (جوافة) وإذا بى أجد شابا واقف بجانبى ليشترى طلب من البائع أن يحضر له كيس سعة ثلاثة كيلو، ثم اشترط عليه أن ينتقى له حبات الجوافة على أن يعطيه خمسة قروش فى كل كيلو

زيادة عن ثمنه، واغتظت من هذا الزبون، الذى يريد أن يحصل على أحسن ما فى البضاعة نظير خمسة قروش زيادة فى كل كيلو، وأردت أن أنبهه إلى هذا الخطأ :

– يا حضرة أنت بهذا الفعل ستحرم الآخرين من الحصول على الصنف الجيد.

– ومالك أنت، أننى أدفع نقود زيادة فى الثمن.

– هذا خطأ يا سيد، إذا استطاع الذى يملك نقودا أن يستحوى على أحسن الأشياء، فماذا يحصل ممن لا يملك نقودا كثيرة مثلك ؟

– مالى أنا وغيرى..

– يجب أن تفكر فى الآخرين مثلما تفكر فى نفسك.

– دع نصائحك لنفسك وإلا تصرفت معك تصرف يجعلك تندم أشد الندم .

ومن العجيب أن البائع اعترض على كلامى، اتهمنى أنى لا أريده أن يأكل عنبا، فوقفت صامتا، لكن لاحت منى التفاتة إلى البائع فرأيته يبدل الكيس الذى به الجوافة المنتقاة، بكيس آخر كان موضوعا بجوار الميزان، أيقنت أنه فعل ذلك ليغشه، وتذكرت على الفور ما حدث لى مع الفاكهى الذى غشنى وباع لى عنبا فاسدا على الرغم من أننى انتقيت عناقيده وحباته، وكان العنقود يضاهى الآخر، والحبة تضاهى الحبة، وعندما ذهبت إلى منزلى، والتف حولى

أولادى، فرحين بكيس الفاكهة، وأخذت أنا أنبه بهذا العنب المنتقى، وفتحت الكيس وكانت خيبة أملى فى داخله، ورأيتنى أتصرف كالأبله، فمرة أضحك فى وجوههم، ومرة اتظاهر بالغضب، ثم أخذت أتقهقر إلى خارج الشقة حتى وصلت إلى بسطة السلم، فألقيت بكيس العنب فى سلة القمامة.

لم تفارقنى تلك الصورة البشعة قط، كلما رأيت بائع فاكهة، والآن أجدنى أرى نفس الصورة والحادثة القديمة تتكرر بواسطة بائع الجوافة هذا، ومع هذا الزبون الذى لم يعجبه نصحى له بالتفكير فى غيره حين يشترى شيئا.

ثم يأتى ضميرى، ويظهر لى ويأمرنى بالتدخل بين البائع والزبون المخدوع، مالى أنا والتدخل فيما لا يعنينى.

– لابد أن تتدخل، وتخبر الزبون بخديعته.

– ولكنك أيها الضمير، سمعت هذا الشخص، أنه يرفض الاستماع إلى النصائح.

– لابد من تنبيهه وإلا..

– لا ، لا تهدد سوف أفعل.

– أيها الرجل، إن الفاكهى قد غشك.

– ماذا ؟

– بدل الكيس المنتقاة، بكيس آخر به جوافة فاسدة، أو ربما أقل

جودة من التى انتقيتها.

- أيها الرجل، أنت حسبت نفسك أبصر الناس، إن لم تنته عن نصائحك هذه، فسوف..

- يا أخى الدين النصيحة.

- هل حسبتنى كنت واقفا على رأسى، أم ترانى كفيف البصر، أم أنك أذكى الناس ؟

وسمع البائع تحاورى مع الزبون فأمسك عنقى بيده الغليظة، وأخذ يكيل لى اللكمات التى تفوق لكمات بطل العالم السابق (كلاى) فى وزنها، وتأثيرها على العضم، وأحسست بأعضائى قد تفككت، لم أعد أسيطر على قدمى حتى أزوغ من ضرباته العنيفة، فتهالكت بين يديه، فتركنى أقع لى الأرض، فصرت كومة جامدة لا حركة فيها.

تجمهر الناس حولى، ورشقوا آذناى بالأقاويل الجارحة، فمن قائل : لعله لص، أراد أن يسرق البائع المسكين.

ومن قائل : ربما أراد أن يزوغ من البائع بعد أن اشترى منه، ولم يدفع ثمن ما اشتراه.

ثم فتحت عينى بصعوبة، فرأيت الضمير واقف أمامى يبتسم.

- هات يدك حتى أساعدك على النهوض.

- أأنت ثانية، أرجوك، اتركنى، ابتعد عنى، لا أريد أن يكون لىّ ضمير، ويحدث لى ما حدث.

- لا، لن أتركك، فقد أرحتني، ومثلك لا يفارقه ضميره أبدا.

فجأة دوى صوت البائع يصيح مستغيث، ويدفع يدى الزبون عن عنقه، لقد فتح الزبون الكيس، بعد أن تسلل الشك إلى قلبه، فوجد كلامى حقا، فانهال على البائع ضربا، وأقسم أن يصحبه إلى مركز الشرطة.

فمددت يدى إلى ضميرى، وسرت معه، وقد أحسست أنا أيضا براحة تعادل الراحة التى أحس بها ضميرى.

صراخ فى الأعماق

جلس أمام المحقق يغلى كالمرجل، رأسه يكاد ينفجر يريد أن يصيح يصرخ، يفصح عما فى نفسه نحوهم بأعلى صوته، أحس بأسد ضارى أطل من رأسه نار كشر عن أنيابه، يريد أن يفترس الجميع، لكنه لم يتقدم خطوة واحدة ثم عاد إلى رأسه مخزولا.

قال المحقق :

– يا سيد إبراهيم أنت متغيب خمس دقائق صباح هذا اليوم بالإضافة إلى تأخرات سابقة تكون فى مجموعها مائة وخمسين دقيقة خلال هذا الشهر مما يضطرنى إلى أن أنفذ البند الخامس من اللائحة وأوقع عليك جزاءا بخصم ربع يوم من راتبك، لكن يجب أخذ بعض أقوالك بسبب هذا التأخير.

حار إبراهيم بماذا يجيب هذا المحقق الذى حكم عليه قبل سماع أقواله !! أيقول له : أن المواصلات كانت السبب، وأنه ظل ينتظر الحافلة وينظر فى ساعته، وكلت قدماه، ومر حافلات ثلاث، لم يستطع وضع قدمه على سلم إحداها.

صاح المحقق :

- يا سيد إبراهيم تأخرك هذا سرقة للوقت.

- يا حضرة المحقق هذه خمس دقائق.

- ولو دقيقة واحدة، هل تعلم بكم الدقيقة العمل بالشركة؟ سرقة الوقت يمثل أموالا ضائعة .

- سرقة ؟

- نعم.

صرخ فى داخله غاص فى أعماقه يصرخ، يا ناس، يا خلق الله لست سارقا ولكنهم..

اتكتمت صرخاته، تمنى لو يستطيع أن يخبر العالم كله بأخبارهم جميعا وأنه ليس وحده الذى يسرق الوقت أو ، تذكر ما سمعه يوما من بعض السعاة وهو مار بالطرقة، متجها إلى مكتبه.

- هو المدير العام مسافر إلى أين هذه المرة يا مدبولى؟

- سمعت أنه مسافر إلى السويد.

- ألم يكن قد سافر إلى فرنسا فى الأسبوع الماضى؟

- يقولون أن واحدا من الخوجات - أصحاب الأعمال الكبيرة - تعرف به فى فرنسا وعزمه على زيارته للسويد.

- إذن لن يكلف المؤسسة شيئا.

- سمعت من رجب أفندى رئيس المراجعة أن ميزانية هذه

السفرية فى حدود ثلاثة آلاف جنيه، أجرة الطائرة، والفندق الذى سيقيم فيه.. (والميكت مانى).

– ماذا تعنى هذه الميكت مانى ؟

– تعنى والله أعلم مصاريفه الشخصية.

– كان ينبغى أن يصرفوا لنا – نحن العمال والموظفين نصف هذا المبلغ ليساعدنا على هذا الغلاء الفاحش فى المعيشة، والمدير العام يسترح من السفر هذا الأسبوع.

وصرخ إبراهيم فى أعماقه : كيف يستريح المدير العام ويترك سفرية من سفرياته، وبدلات السفر، وخلافه !! وحين يسافر يتعطل العمل كله فى كل الإدارات، الكل يتظاهر بأنه مرهق فى العمل وهو لا يعمل وتأتى سكرتيرته (المعصعصة) إلى المكاتب تزورهم مكتبا مكتبا، والكل يتقرب إليها رجال ونساء يقدمون لها : المشروبات الساخنة والباردة، وكأنها – السكرتيرة – ستأتى بالترقية، لمن لم يرق وبالعلاوة لمن لم يحصل عليها هى فى النهاية امرأة، مثلها فى هذه المؤسسة مثل باقى السيدات اللواتى لا يحللن لقمتهن فى العمل.

الواحدة منهن تأتى فى الصباح فترسل الساعى يشترى لها الإفطار وبعد الإفطار يأتيها بالشاى، ثم تنهض وتبحث عن جرنال أحمد أفندى الذى يواظب على شرائه يوميا ويعيره لأحداهن، وهى بدورها تعيره لزميلتها، ومن زميلة لزميلة يدور الجرنال عليهن.

جميعا، أما سميحة فهى تذهب إليه مباشرة لتأخذ منه الجرنال.

- أعطنى الجرنال يا أستاذ أحمد.

- لم أقرأه بعد يا آنسة سميحة.

- أقرأه بعد أن أقرأه أنا الأول، أنا أعلم أنك تشتريه من أجلى أليس كذلك ؟

- يبدو أن الأمر كذلك يا آنسة سميحة.

وينطلقان فى ضحكة مشتركة، عالية، وإلا الكنفاه وشغل الكنفاه.

- أرنى هذه الغرزة يا سعدية ؟

- أعجبتك؟ لقد تعلمتها من فايزة زميلتنا فى الطابق الرابع.

- سأتعلمها منك أنت، لا أستطيع أن أصعد إليا بقدر العرقسوس الذى أمامى، لعلك لا تعلمين أننى فى شهرى التاسع، باقى لى أيام.

- تلدى بالسلامة يا أختى.

- الله يسلمك، الخط معك يا فوقية؟ أعطه لى من فضلك، آلو.. آلو.. دع الخط معى وحياتك ياسى مرسى، آلو : مدحت ؟ كيف حالك ماذا آخذ معى من طعام اليوم؟ خضار ؟ لدينا الخضار فى الثلاجة باقى من البارحة، اسمع.. من البنت التى ردت على وأنا أطلبك ؟ آه طبعا أغار، ألست زوجى ؟!

دق جرس التليفون رفع المحقق السماعة..

– لا تأخذنى يا أستاذ ابراهيم، دقيقة واحدة.

– اتفضل يافندم.

– ألو.. أهلا يا روحية، ما بها؟ ساخنة، كم درجة حرارتها؟ ٣٧؟.. لا. أنا قادم إليكم حالا، أمامى تحقيق سأنتهى منه، فى دقائق قليلة، اذهبى أنت بها إلى الدكتور مرسى فرج، سألحق بك عنده، لا حول ولا قوة إلا بالله..

– خيرا يافندم ؟

– بنتى الصغيرة مرضت فجأة، تصور حررتها بلغت ٣٧ درجة. آه، انسخى هذه المذكرة يا آنسة فوزية من أصل وثلاث صور.

قامت من مكانها ببطء تناولت منه المفكرة، جلست أمام الآلة تركب الورق بها ثم تنزعه، تحرك الآلة ثم تركب الورق، ثم تنزعه، تحرك الآلة، ثم تركبه مرة أخرى.

– يا آنسة فوزية أنا فى حاجة إلى هذه المذكرة على الفور.

– ماذا أفعل الآلة لا تريد أن تعمل.

صرخ إبراهيم فى أعماقه : أنت جالسة بلا عمل من الصبح، لماذا لم تجربيها أو تصلحيها أو تطلبى الصيانة !؟ تذكر زميلته سميحة..

– الخطاب كله أخطاء يا آنسة سميحة، وهذا سيوقعه السيد المدير العام .

– أصلحه أنت يا إبراهيم أفندى، خذ (المزيل) والموس، لأن قدامى

كم غرزة فى الكنفاه أريد أن أنتهى منها.

- قال المحقق :

- أحضر شاى يا مدبولى لإبراهيم أفندى.

- متشكر يافندى لا داع لغرامة سيادتك.

وانسحب مدبولى عند سماعه كلمة متشكر ولم يحضر الشاى، وصرخ إبراهيم فى أعماقه : كيف يحضر الشاى وهو لن يستفيد منه، المحقق لن يطلب له شايا مثلما يفعل باقى الموظفين والموظفات وخاصة الموظفات :

- أحضر لى شايا يا عم محروس وشايا لك أنت أيضا، وتعال أجلس جانبى أريد أن أسألك عن شىء..

ويأتى بالشاى مسرعا، ويجلس بجوارها..

- قل لى يا عم محروس، هو إبراهيم أفندى لماذا لم يتزوج حتى الآن ؟

- سمعتهم يا هانم يقولون أنه خطب أكثر من عشرين فتاة لكن ولا واحدة، ارتضته عريسا..

- يا حرام، لماذا يا عم محروس لم يرضين به ؟

- يقولون والعلم عند الله، أن إبراهيم أفندى ليس لديه القدرة على الزواج، أى إنه ليس رجلا..

وخرقت كلماته أذناى يا محروس ولكنى لم أعاتبه أو أعاقبه وحين رأنى انتقل من جانبها وأجلس على مكتب زميلنا أحمد الذى كان

يتلكأ فى مكان آخر تاركا مكتبه.

انهض من على مكتب الأستاذ أحمد يا عم محروس، لأنه لو جاء ورأك جالسا على مكتبه سيغضب.

تصبب محروس عرقا، لا أدرى إن كان حرجا منى أو من كلام الزميلة وصاح :

ولماذا يغضب هل سألوث المكتب، وأنا الذى أقوم بنظافته.

- ما هذا يا عم محروس!؟؟ أأذهب أنا إلى البيت ؟

- اتفضل يا أحمد بك، اتفضل أسف يافندم.. أسف..

وفرد (الفوطة) على المكتب وأخذ فى تنظيفه بهمة ونشاط.

وقع فى دفتر التأخير يا إبراهيم أفندى.

- هذه خمس ددقائق يا أستاذ علوان..

ولو دقيقة واحدة، إننى هنا وأمامى هذا الدفتر لأحافظ على الوقت وحضرتك تسرق الوقت.

أنا أسرق الوقت؟ إذن كلنا لصوص، كلنا لصوص!

صاح المحقق :

ما هذا يا إبراهيم أفندى؟ كيف تصرخ وتقول : كلنا لصوص !

ولكن كيف سمعتنى يا حضرة المحقق ؟ أننى أصرخ فى أعماقى؟

أنا.. وضميرى والكمسارى

ماذا أفعل معك أيها الضمير ؟!! وما أخرتها معك، إنك تدس أنفك فى كل شىء، ما يعنيك وما لا يعنيك بحجة أنك ضمير، وتظل تأمر وتنهى وتسدى نصائحك ثقيلة الدم - أحيانا - التى تمجها نفسى وطرحها جانبا فى بعض الأمور.

ماذا تريد، هه ؟ أتريد أن تفرض نفسك على، ألا تعلم أنك ضميرى أنا، وأنا الذى أمتلكك وليس أنت الذى تمتلكنى، حقا أننى أسمع كلامك واصغ السمع لنداءاتك كثيرا وأستجيب لصوتك غالبا، ليس عن ضعف وإنما عن مكرم وطيبه، وربما أغراك هذا فتماديت فيما ظننته سلطانك المتعاظم، حسبك ما سمعت ولا تمض فى طريقتك هذه، هب أننى خالفتك مرة أوو بضع مرات، ماذا يضيرك فى ذلك ؟

ماذا؟ يا إلهى، أننى اضطرب، !! أشعر بالخوف، من أنت ؟ ومن أين جئت ؟

- أنا ضميرك.

– ضميرى؟!! أنت شاب أنيق!!! وهل يظهر الضمير لصاحبه؟!

– لا ، لكننى تعبت معك، ففضلت أن انسحب وأترك صحبتك.

– أو تتركنى حقا؟ وأعيش بغيرك؟!.. ولمن توجه سميل نصائحك؟!

– وما جدوى وجودى بين جوانبك وأنت لا تصغى إلى صوتى، ولا تستجيب لنصائحى.

– أننى لا أذكر أننى خالفتك هذه الأيام.

– لك حق فأنت الآن بلا ضمير.

– هب ذلك حقا الآن، ولكننى لم أخالفك غير بضع مرات، قد عللت أسبابها لك وقد غفرتها لى.

– لكننى لم أغفر لك موضوع الكمسارى.

– لا تجسم الموضوع هكذا، ماذا حدث فى موضوع الكمسارى؟، كل ما فى الأمر أنه صديقى، نعم لم يكن صديقى هذا الكمسارى المدعو أحمد، لكنه أنشأ معى صداقة حينما ناديته باسمه – عندما سمعت السائق يناديه – وقلت له صباح الخير يا أحمد، منذ ذاك اليوم وهو لم يجعل بينى وبينه فارق، فحينما أعطيه القرش والنصف ثمن التذكرة: يأخذ القرش ويرد إلى النصف، ولا يعطينى التذكرة فافهم من هذا أنه احتفظ بالقرش لنفسه وتركنى أركب على حساب مؤسسة النقل العام، لكن بينى وبينك أظل فى كل مرة قلقا متخوفا من حضور المفتش، وسؤالى عن التذكرة، ماذا يكون موقفى؟ ماذا

أقول عندئذ؟ وأتصور عيون الناس ترمقنى بازدراء.

– قل له إنك حرامى أنت والكمسارى.

– حرامى؟ اسمع بقى، أنا لا اسمح لك بهذا، نعم؟ الزم حدك.

– ألم تقتسما ثمن التذكرة أنت والكمسارى سويا ؟ ألم تشجع الكمسارى أن يسرق هيئة النقل العام وأنت تشترك معه فى السرقة باحتفاظك بالنصف قرش فى كل مرة تركب مع هذا اللعين الذى تنتظر دوره فى الغدو والرواح من أجل مشاركته فى السرقة.

– لا تغالى هكذا، ليست هذه سرقة.

– إنكما يا صاحبى تسرقان أكل الأطفال فى ملاجئ الأيتام.

– ماذا ؟

– تسرقان بهذا القرش ونصف أجور عمال رصف الطرق (وسفلتتها).

– كيف ؟!

– تسرقان ثمن سلاح جنودنا على الجبهة وطعامهم.

– بهذا القرش ونصف؟

– نعم، إنكما تسرقان ثمن بناء المصانع وتشييد المدارس، تسرقان ثمن بناء المستشفيات، وثمن أدوية المرضى، إنكما مجرمان يا صاحبى.

– كفى، كفى بالله عليك، وقل ماذا أفعل مع هذا الكمسارى،

شريكى فى سرقة ثمن التذكرة .

– حينما يحضر المفتش ويسألك عن التذكرة أخبره بكل شىء لا تزوغ منه كالعادة.

– ولكن الكمسارى سوف يعاقب (سيخرب بيته).

– سوف ينال عقابة على خيانته لعمله، لأمانته على مال الشعب.

– ياللمصيبة المفتش قادم، إنه يرمقنى كأنه كشف المستور.

– قف جانبى من فضلك، إننى خائف، المفتش اقترب الينا، لا تتخلى عنى أرجوك، سأخبره بكل شىء.

– التذكرة من فضلك؟

– التذكرة؟ آه.. الموضوع يا سيدى هو من هنا .. إلى هنا) وهذا كل ما حدث.

– هذا شىء لا يصدق، أين دليلك على صدق ما تقول ؟

– هذا كان يحدث بينى وبينه فقط .

– إنه يكذب، أنا لم أخذ منه نقود ولم أره، إنه شخصى (مزوغ) أننى لا أعرفه قط .

– أتنكر صداقتى أيها الكمسارى اللعين.

– هيا أيها السائق اتجه إلى قسم الشرطة.

– الشرطة؟

– نعم ستقدمان أنتما الاثنين إلى الشرطة ثم إلى النيابة العامة.

– يا إلهى (حجز) ومحكمة وقاض ومحاماة أرأيت النتيجة أيها الضمير ها قد سمعت كلامك وأخبرت المفتش بكل شىء.

– وها هى النتيجة الرمى بى فى الحجز ثم الحكم على بثلاثة شهور سجن.

– مع إيقاف التنفيذ.

– نعم ولكنك لا تعلم ما هو الحجز وما أصاب جسدى من نومى فيه.

– ولكنى استرحت الآن.

– أأقاسى كل هذا من أجل أن تستريح (يا ضميرى).

– نعم إذا أردت أن أكون معك دائما.

دمعات محبوسة فى مآقى عصفور الكنارى

وقف منزويا فى أحد أركان الغرفة، كاسف البال، أخذ يحملق فى عصفور الكنارى الذى قبع فى قفصه، اضطرمت أفكاره، أخذت تشب فى رأسه، حتى فاقت عمره الذى لم يتجاوز اثنى عشر عاما. ارتجف جسده النحيل حينما استعرت تلك الأفكار، واجتازت حوائط الأحداث التى مرت بحياته وحياة هذا العصفور، دمعت عيناه الواسعتان الخضراوان، تسلق حوائط الأحداث، تشبث بها، دخل فى أعماقها، أحاط بها كيانه، قارن بين موت أمه، وموت أم هذا العصفور انكمشت فى قفصها، وانزوت فى أحد أركانه، بعد أن أفرخت بيضتها هذا العصفور، ثم ماتت، كذلك أمه، انكمشت على سريرها بعد أن وضعت وليدها وماتت، ثم لحق بها وليدها بعد يومين، وتركاه وحيدا مع أبيه، وهذا العصفور، الذى يؤنس وحدته ويسليه.

أصبحا يتيمين، ولعل سامح يمتاز عن العصفور بأنه ينعم بمواساة أبيه، وبملاطفته أما العصفور فلا يجد له أبا يقدم له عطفا،

وحنانا مثلما يتلقاه سامح من أبيه.

إلا أنه قد لاحظ في الفترة الأخيرة، بعد مرور أسبوع على موت الوالدتين أمه وأم العصفورتين أن أباه يوالي العصفور بعض العناية فدهن قفصه باللون الأخضر الزاهي، ويعد له الطعام والشراب، ثم يطلب منه الاعتناء به، وأن يقضي بعضا من وقت أجازته المدرسية في اللعب مع العصفور ، والتسلية به.

كان الأب يعمل (ميكانيكى سيارات) فى أحد المصانع، ويعطى فترة أخرى، بعد ظهر كل يوم فى ورشة خاصة لأحد الأهالى، ليضاعف دخله مما يضطره للتغيب عن البيت طوال اليوم، يبرحه فى السادسة صباحا، ولا يعود إليه إلا فى التاسعة مساء تاركا ابنه مع العصفور.

رفض سامح اللجوء إلى جدته لأمه، بعد موت أمه - لكى يصاحب أباه فى وحدته - وهذا العصفور قد تعلم كيف يعد الطعام لأبيه الذى يأتى من العمل منهوك القوى، ويرتمى على فراشه، بملابسه التى يعمل بها، بعد أن يقبله، ويتحدث مع العصفور ببضع كلمات مداعبا، ثم يسأل الابن : هل أطعم العصفور وسقاه، ثم ما الذى أعده لهما من طعام، ثم يتناولان طعامهما معا، الذى غالبا ما يكون معلبات قد أحضرها الأب سابقا، فهو دائم يحضر فى المساء طعام الغد، وعلم سامى كيف يفتح المعلبات.

ويأخذ الأب فى الثناء على مهارة ابنه فى اعداد الطعام، ويداعبه حتى يضحك ويسترسل الأب فى مداعبة ابنه الذى أسعده بضحكاته وأسره بكلامه، ثم يهاجم النوم عينى الأب، ويطبق عليهما بكفيه الغليظين، ويلق ذراعيه على الجسد المتعب، فيعصره عصرا، ويجذبه إلى الفراش، ويقاوم الأب، ويتأرجح الجسد المنكود بين اليقظة والنوم ويسترسل فى حديثه لابنه مداعبا لكنه يفشل فى مقاومته، فتموت الكلمات على شفتيه، وينحنى الجسد المنهوك خضوعا لسلطان النوم، فيطرحه على الفراش بملابس العمل.

وقتئذ فيقوم سامح بخلع جورب أبيه، ثم يدثره، وينظر إليه مشفقا، ويدعو له بتحمل التعب، وطيلة العمر، تماما كما كانت تفعل معه أمه رحمها الله، إلا أنها كانت تزيد فى عملها مع أبيه بأن تخلع ملابسه وهو نائم قطعة قطعه وتلبسه (جلباب النوم) وهذا لا يستطيع سامح فعله، لثقل جسد أبيه، ولاستحيائه أن يرى بعض ما خفى من جسده.

لم يشعر سامح أن الحياة رتيبة، مملة، إلا بعد أن ماتت أمه، ولم يكن يظن أن الحياة راكدة كالماء الآسن إلا فى هذه الأيام المتكررة على صورة واحدة، أصبح يكرهها وكأنها ظلمة يخشى الغوص فى أعماقها، أو كأنها حفرة يخاف أن تحتويه أغوارها.

نظر سامح إلى عصفور الكنارى فوجده لا يرقص كعادته، ولا يترنم بأنغام صوته الذى كان يشع فى البيت بالبهجة والانشراح كل صباح، ظن أن العصفور يعانى من ألم فى جسده، وأخذ يتحسس جسده، ويتفقد أعضاءه عضوا عضوا، ولما لم يتبين شيئا قال :

– لقد تحسست جسدك لعلى أجد ما يؤلمك ويسبب حزنك.

لكن لم أعثر على شىء!

فكر أن يكون حزن العصفور بسبب ذلك العصفور الصغير الغناء، فلعل ذلك العصفور الدخيل قد أوحى إلى الكنارى بشىء أو أوعز اليه بالهرب معه، ليكونا معا، ويحلقا فى الفضاء سويا، ويرقصان على الأشجار، ويترنمان بصوتهما الجميلين فى الخلاء، وكأن العصفور فهم ما يجول بخاطر سامح فأخذ ينظر إلى النافذة بإمعان، والشوق إلى التحليق يتكلم فى عينيه.

فكر سامح أن يطلق العصفور ليدخل السعادة على نفسه الحزينة، لكنه خشى مخالفة أباه الذى أوصاه بالاهتمام بالعصفور، فتقدم منه وقال :

– أيها العصفور، أننى أعلم أنك لم تجيبنى، لكنك ربما تفقه ما أقول فهل تعدنى إذا أنا أطلقتك أن تعود مرة أخرى بعد أن تأخذ حظك من اللعب مع صاحبك العصفور الزائر بالأمس؟

نظر إليه العصفور بعينين ذابلتين، خيل إليه أن العصفور يفقه ما يقول، وأنه وافق على ما عرضه عليه، فأطلقه على الفور.

- ٣ -

طار العصفور بسرعة مذهلة، حلق فى فضاء الغرفة ووقف على رتاج النافذة وأخذ يرقص ويشقشق، فأشع فى جو الغرفة لحن موسيقى جميل.

ابتهج سامح بحركات العصفور، وأحس بأنه صنع صنعا عظيما بإطلاقه، لكنه تذكر عودة أبيه من العمل، وأنه سوف يغضب حينما لا يرى العصفور ومرت الساعات ثقيلة، وسامح يتأرجح بين أفكاره، ثم أخذته سنة من النوم، حتى عاد أبوه فى الغروب فاستيقظ على صوته، ثم ترامى إلى سمعه صوت آخر لم يكد يصدق أنه صوت عصفوره الحبيب، فتقدم منه ليشكره لأنه لم يعرضه للحرج مع أبيه، وعجب لأمره، كيف عاد ومن الذى أرجعه، وكيف أدخل نفسه فى القفص ثم تذكر أنه ترك باب القفص مفتوحا بعد أن أطلقه، وحمد الله أن العصفور أفاء بوعده وعاد، لكن لدهشته، وجد عصفورا آخر مع فى القفص.

- ما هذا يا عصفورى العزيز، استضفت عصفورا آخر، إذن لا عليك فسوف أعد لكما وجبتان من الطعام القيم، لأرفع رأسك أمام

ضيفك، وأطول عنقك .

قص على أبيه ما فعله العصفور وكيف أطلقه ثم عاد من تلقاء نفسه مع عصفور آخر. فابتسم الأب ولم يقل شيئاً.

- ٤ -

فى اليوم التالى أراد سامح أن يضع طعام للعصفورين، فتقدم من القفص بكل حب وسعادة وفتح بابه، ولدهشته رأى العصفورين يطيران ويحلقان فى سماء الغرفة فنظر إليهما وقال :

– لماذا تطيرا..؟ لقد أعددت لكما الطعام، فهيا عودا لتتناولا طعامكما لكن العصفورين لم يعبئا بكلامه، وخرجا من النافذة.

كان والد سامح فى هذه اللحظة موجودا فى البيت، ولم يذهب إلى عمله بعد، فنظر إلى ابنه مشفقا:

– هيهات.. أن يعودا إلى القفص يا بنى مرة أخرى بعد أن حصلا على حريتهما أطرق سامح إلى الأرض حزينا، ثم نظر إلى أبيه متحسرا:

ولكنهما عادا بالأمس .

ضمه الأب إلى صدره بحنان :

– لا تغضب، فسوف أشترى لك عصفور كناريا آخر.

– ولكن الذى يحيرنى يا أبى فى أمر هذين العصفورين، إنهما

عادا بالأمس ودخلا القفص، من تلقاء نفسهما.

ابتسم الأب، وربت على كتف ابنه :

- إنهما عادا بالأمس إلى القفص، لكنهما لم يجدا به الحرية فتحينا فرصة فتحه، وتركاه.

ما كاد الأب ينتهي من جملته الأخيرة، حتى لاحت في رأسه خاطرة، لابد أن يرسل سامح إلى جدته ليقضي لديها فترة من الوقت.

مسافر بلا زاد

قصة من التراث

كانت الشمس تتوسد كبد السماء ، وتلقى بوهيجها إلى رمال الصحراء، التهبت أرجل مرافقيه، وتورمت، حتى الرواحل انتفخت أرجلها، تنقل خطواتها ببطء مرغمة.

صاح أحدهم :

– ما أصعب حر الظهيرة، لابد من نصب خيمة للإمام، ثم نقيل بعض الوقت، بعد أن نؤدى صلاة الظهر، لعل الإمام قد تعب.

قال الوكيل.

قال الوكيل :

– لعله جائع أيضا.

كان مرتحلا من الشام إلى الحجاز، لم يظهر الضجر أبدا طوال الرحلة، وإن كان قد بدا على وجهه ما ينم عن الاجهاد.

– ألم يصبك التعب يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

أومأ برأسه، وهو مازال يتمتم بتلاوة بعض أيات من القرآن الكريم التى بدأ فى تلاوتها منذ بدء الرحلة.

توقف الركب، ونصبت الخيام، قال عبد الله بن العباس :

– أقم الصلاة، فقد حان وقت صلاة الظهر.

أم مرافقيه في الصلاة، وبعد أن انتهى جلس في ظل الخيمة ثم نادى على وكيله وطلب منه أن يأتيه بالطعام.

حار الوكيل كيف يقول (لرجل عرف بالجود)؟ لقد نفد الطعام.

لاحظ الإمام أن الرجل قد اعتراه الخجل، فانتزعه من خجله بقوله:

– اذهب في هذه البرية ! وأبحث فلعلك تجد راعيًا أو حيًا فيه لبن أو طعام .

اصطحب الوكيل بعض الغلمان، أخذوا يجوبون الصحراء وأحياءها حتى رأوا عجوزاً في (حي) فقال لها الوكيل :

– أعندك طعام نبتاعه يا خالة ؟ قالت :

– أما البيع فلا، ولكن عندي ما لي ولابنائي به حاجة.

قال الوكيل :

– فأين بنوك ؟ قالت :

– في رعي لهم، وهذا أوان أوبتهم، قال الوكيل :

– فما أعددت لك ولهم؟ قالت :

– خبزة تحت ملتها. قال :

– وما عندك غير هذا؟ قالت :

- لا شيء، قال :

- فجودى لنا بشطره، قالت :

- أما الشطر فلا أجود به، وأما الكل فخذوه.

تعجب الوكيل !! كيف تمنعين النصف وتجودين بالكل!!؟

- نعم لأن اعطاء الشطر نقيصه، واعطاء الكل كمال، وفضيلة، فأنا أمنع ما يضعنى، وأمنح ما يرفعنى.

فأخذوا منها الطعام وهم جميعا فى عجب من هذه العجوز التى لم تسألهم من هم ولا من أين جاءوا!!.

تقدم الوكيل من عبد الله بن العباس وقص عليه خبر المرأة الأعرابية، وقدم له الغلمان الطعام، فأعجب عبد الله من فعل هذه المرأة، وطلب من وكيله أن يحضرها الساعة.

فرجع الوكيل إليها واصطحب الغلمان الذين كانوا بصحبته فى زيارتها فى المرة الأولى، تقدم منها متدثرا بالحياء:

- سيدتى، هل تفضلتى وانطلقتى معنا إلى صاحبنا، فإنه يريد أن يراك؟

نظرت إليه مستنكرة:

- وماصاحبكم يا ولدى؟

- إنه عبد الله بن العباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

انتشت فرحا.

– وأبيكم هذا هو الشرف العالى، وذروته الرفيعة، وماذا يريد منى؟

– يريد مكافأتك، وبرك.

طافت بوجهها سحابة قاتمة، واختلج صوتها :

– أوه، والله لو كان ما فعلت معروفا ما أخذت له بدلا، فكيف وهو شىء يجب على الخلق أن يشارك فيه بعضهم بعضا؟!

أخذ الوكيل يلح عليها ويرجوها أن تلبى دعوة عبد الله بن العباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فدمعت عيناها عند ذكر الرسول، وقالت :

– سأتى إليه حبا فى آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم، لكنى لن أقبل أية مكافأة.

سارت معهم فلما وصلت إلى عبد الله سلمت فرد عليها السلام وقرب مجلسها ثم قال لها :

– فمن أنت ؟ قالت :

– من بنى (كلب)، قال :

– فكيف حالك؟

نظرت إليه، وابسمت راضية، وقالت :

– أسهر اليسير، وأهجع أكثر الليل، وأرى قرة العين فى بنى، فلم

يك من الدنيا شيء إلا وجدته فيهم.

قال :

– فما ادخرت لبنيك إذا حضروا ؟

نظرت إليه ثانية، وقالت :

– أدخرت لهم ما قاله حاتم طيىء :

(ولقد أبيت على الطوى وأظله.. حتى أنال به كريم المأكل)

فازداد عبد الله منها تعجبا، ثم قال :

– لو جاء بنوك وهم جياع فما كنت تصنعين :؟

قالت :

– يا هذا !! لقد عظمت عندك هذه الخبزة حتى أكثرت فيها مقالك، وأشغلت بها بالك، فكف عن هذا فإنه يفسد النفس.

فقال عبد الله :

– احضروا أولادها.

فأحضروهم، فلما دنوا منه رأوا أمهم، وسلموا، فأدناهم إليه وقال:

– إنى لم أطلبكم وأمكم لمكروه، وانما أحب أن أصلح شأنكم وألم شعثكم، فقالوا فى صوت واحد:

– إن هذا قل أن يكون إلا عن سؤال أو مكافأة لفعل قديم.

قال :

- ليس شيء من ذلك، لكن جاورتكم فى هذه الليلة فأحببت أن أضع بعض مالى فيكم، قالوا جميعا فى صوت واحد - أيضا - .

- يا هذا !! نحن فى خفض عيش وكفاف من الرزق، فوجهه نحو من يستحقه، وإن أردت النوال مبتدئا من غير سؤال فتقدم بمعروفك مشكور، وبرك مقبول.

فقال : نعم هو ذاك.

وأمر لهم بعشرة آلاف درهم وعشرين ناقة، فقالت العجوز :

- لأولادها :

- ليقل كل واحد منكم شيئا من الشعر، وأنا أتبعكم فى شيء منه.

فقال الابن الأكبر:

- شهدت عليك بطيب الكلام .. وطيب الفعال وطيب الخبر.

وقال الابن الاوسط :

- تبرعت بالجود قبل السؤال.. فعال عظيم كريم الخطر.

قال الابن الأصغر :

- وحق لمن كان ذا فعله.. بأن يسترق رقاب البشر.

فقالت العجوز :

- فعمرك الله من ماجد.. ووقيت كل الردى والقبر.

عهد رجل

قصة من التراث

كان يسير خائفاً يترقب، لا يدرى أين يختبئ، أظلمت الدنيا فى وجهه وحسب أن الطرقات – كلها – قد سدت أمامه، قطع الصحارى والوديان، ورحل من بلد إلى آخر، ولكن الخوف ما زال مستولياً عليه.

ربت رجل على كتفه بحنو، فانزعج.

قال الرجل :

ألست أنت إبراهيم بن سليمان الأمير الأموى الذى يبحث عنه جنود الخليفة (عبد الله أبى العباس) ليقتص منه؟

أحس إبراهيم بأنه هالك لا محالة، لقد دنى الموت منه.. بعد أن عرفه هذا الرجل فالتفت إليه وقال :

خذنى إليه فقد تعبت من الهرب والترحال من بلد إلى آخر، صدقنى الموت أرحم من الهروب، قال الرجل :

لا تخف يا إبراهيم، فقد عفا عنك الخليفة.

سمع ذلك إبراهيم، فلم يكد يصدق، وقال :

أتسخر منى وأنا فى مثل هذه الحال التى تدعو للإشفاق، أراك

رجلا مهيبا قويا، فكيف تسخر من الضعفاء؟

ثم دمعت عيناه، قال الرجل :

أقسم لك أن الخليفة أصدر عفوه عنك بعد أن توسط لك لديه بعض المخلصين أقنعوه أنك لم تنشق عليه وتعصاه، وما ذنبك إلا أنك أحد أمراء (بنى أمية) وقد أمر الخليفة عشرات من رجاله - وأنا منهم - للبحث عنك، لنأمنك، ونحضرك أمامه لينعم عليك بالعطايا، فهيا بنا، ولا تخف.

سار إبراهيم مع الرجل وهو لا يدرى إذا كان ساعياً إلى حتفه أو إلى نعم الخليفة أبى العباس ؟

كان أبو العباس قد اشتهى بحبه للانتقام من أمراء دولة بنى أمية وقتلهم حتى أن الناس قد لقبته بلقب (السفاح)، ولذلك أخذ إبراهيم يستعيد ذكرى الجرائم التى ارتكبها هذا السفاح ضد أمراء بنى أمية، فترتعد فرائصه، ولا تقوى قدماء على السير، فيدفعه الرجل فى ظهره، حتى وصلا إلى قصر الخليفة أبى العباس.

وقف أمام باب القصر، يقدم رجلاً، ويأخر الأخرى فهو يظن أنه إذا دخل هذا القصر فهو مقتول لا محالة ولن يخرج منه يا.. ولدهشته وجد حراس القصر يبتسمون فى وجهه، هدأت نفسه قليلا، لاقاه الحاجب بالترحاب، ولكن الخوف عاوده حينما تركه الرجل الذى جاء به إلى القصر، وأسلمه للحاجب.

وقف أمام الخليفة وجسمه يرتجف، لقد استولى عليه الخوف أحاطه من كل جانب، على يمين الخليفة يقف السياف، الرجل الموكل به ضرب الرقاب، شاهراً سيفه، السيف سنه يلمع وضوءه يخطف الأبصار، أحس إبراهيم بالدوار، كاد يقع على الأرض بعد أن اصطكت ركبتاه اللتان أخذتا فى الارتعاش المستمر.

قال السفاح أبو العباس:

ماذا تظنني فاعل بك يا إبراهيم ؟

اصطكت أسنانه، انتزع الكلام من فمه بصعوبة :

– عفوك الخليفة :

– لماذا أنت خائف يا إبراهيم ؟ لقد استولى عليك خوف شديد؟ أتخاف الموت ؟ وأنت لن تفر منه، وحتما ستلاقيه ؟

أحس بالرعب يحطم أضلعه ويوقعه على الأرض.

واصل الخليفة حديثه :

صدقني، لن تموت سوى مرة واحدة، ولن تفتل منه مهما طال بك الأجل، وخير لك أن تموت شجاعاً من أن تموت جباناً، وقاتلك لن يقدم أجلك ساعة ولن يستطيع أحد أن يؤخره.

تماسك إبراهيم قليلا.، قال فيما بين نفسه : ما الذى يرمى إليه الخليفة؟

صرخ فيه الخليفة :

- انهض يارجل، تعال اجلس هنا فى حضرتى.

وكأنه غريق وجد يدا تنشله من الماء، فنهض مسرعاً، وارتمى على قدمى الخليفة يريد أن يقبلهما مستعطفا، فهو مازال لا يأمن جانبه .

صاح الخليفة مستنكراً :

ما هذا يا رجل ؟ أستغفر الله العلى العظيم أمرتك بالجلوس لا أن ترمى على قدمى ديننا الحنيف لم يأمر بمثل ما تفعله الآن، لعلك تريد أن أعيد النظر فى أمر العفو عنك ؟

- أنت أهل للعفو يا مولاى .

قال الخليفة :

هيا تعال بالقرب منى.

جلس إبراهيم ثم قال بصوت يمزقه الخوف :

مادمت عفوت عنى يا مولاى وأمنتنى، فأرجو أن تجعل هذا الرجل حامل السيف يغادر المكان فغلظ جسمه ولمعان سيفه يخيفاننى.

ضحك الخليفة حتى استلقى على ظهره فوق كرسيه، ثم أشار بيده إلى الحاجب فصرف (السياف) وبعد برهة وجيزة أشار مرة أخرى بيده ففهم الحاجب إشارته فأمر بإحضار العازفين والمغنين، ثم صفق بيده فجىء بأبريق القهوة وصب للخليفة ثم لإبراهيم بن سليمان، وعزف العازفون وغنى المغنون، وبعد أن استمع الخليفة

للموسيقى وشىء من الغناء، أشار بيده أن انصرفوا، فهب الجميع منصرفين، فمال على إبراهيم بن سليمان وقال له :

– حدثنى يا إبراهيم عن أغرب ما مر بك أثناء اختفاءك.

قال إبراهيم وقد أحس بالأمان، وأن الخليفة جاد فى العفو عنه :

نعم يا مولاى، لقد رأيت أثناء اختفائى وترحالى من بلد إلى آخر العجب العجاب وكان أكثرها عجبا ما رأيته فى الكوفة التى اختفيت بها أخيرا.

قال الخليفة :

– وماذا رأيت فى الكوفة يا إبراهيم ؟ حدثنى عن كل ما رأيت .

قال إبراهيم :

- ٣ -

– كنت مختفيا فى (الحيرة) بمنزل يشرف على الصحراء، فبينما كنت يوما على ظهر ذلك البيت أبصرت أعلاماً سوداء حوالها جنود كثيرون قد خرجت من الكوفة قادمة إلى الحيرة فأوجست منها خيفة إذ حسبتها تقصدنى، فخرجت مسرعاً من الدار متنكراً، وتوجهت إلى الكوفة وأنا لا أعرف من اختفى عنده، فأنا لا أعرف أحدا من أهل الكوفة، فوقفت متحيرا فى أمرى لا أدرى إلى أين أذهب وإلى أى جهة أسير، وكنت فى مفترق طرق، فنظرت حولى، وإذا أنا بباب كبير فدخلته، فرأيت فى فنائه رجلاً وسيماً لطيف الهيئة نظيف

الثياب، تدل هيئته على أنه من الأعيان، وما أن أبصرني حتى سألني:

من أنت وما حاجتك؟

قلت : رجل خائف وجاء يستجيرك ويستظل بحمايتك .

فقال الرجل :

- حمانا الله جميعا، وأجارنا من الدنيا وغرورها، وشرورها.. تفضل البيت بيتك، ثم أنزلني في حجرة تلي حجرة حرمه، ولم يسألني عن اسمي أو عن سبب اختفائي عنده، فأقمت عنده مدة أكل أحسن الطعام وأشرب أحسن الشراب وألبس أحسن الملبس، وكان وجهه بشاً لي دائما، ويسألني: (هل استرحت في المنام هل أعجبك الطعام ، هل راق لك الملبس؟)

فكنت أشكره على كرمه الذي يفوق كل كرم، ثم لحظت عليه أنه يركب فرسه في كل يوم من الفجر، ولا يرجع إلا قبيل الظهر، فعجبت لأمره وعزمت أن أسأله عن سبب خروجه من الفجر، وعودته قبيل الظهر راكبا فرسه، حاملا سيفه، وفعلا قلت له :

- أراك تدمن الركوب وتخرج من الفجر ففيم ذلك ؟

قال بعد أن زفر زفرة حارة :

- إن إبراهيم بن سليمان بن عبد الملك قتل أبي، وقد بلغني أنه مختف في الحيرة فأنا أطلبه لعلي أجده، وأدرك منه ثأري.

فلما سمعت ذلك – عظم خوفى وضاقت الدنيا فى عينى – وقلت فى نفسى:

– لقد سقت نفس إلى حتفى، ثم سألت الرجل عن اسمه واسم أبيه، فأخبرنى عن ذلك فعلمت أن كلامه حق، فقلت له :

– يا هذا، إنه قد وجب على حقك، وجزاء معروفك لى أريد أن أدلك على ضالتك..

قال وقد أهشه كلامى :

– وأين هو ؟

قلت :

– أنا بغيتك، أنا من قتل أباك، فخذ بثأرك.

فابتسم غير مصدق، وقال :

– وهل أعياك الاختفاء، والبعد عن دارك وأهلك ؟ فأحببت الموت ؟ هل مللت منا ؟

قلت :

– لا والله، لكنى أقول الحق، وإنى قتلت أباك فى يوم كذا من أجل كذا وكذا فلما سمع الرجل كلامى هذا وعلم صدقى تغير لون وجهه، واحمرت عيناه، ثم فكر طويلا،، والتفت إلى وقال :

– أما أنت فسوف تلقى أبى عند حاكم عادل فيأخذ بثأره، منك، وأما أنا فلا أخون عهدى وقد أمنتك، لكنى أرغب أن تبتعد عنى، فإنى

لست آمن عليك من نفسى.

فأحسست بإكبار لهذا الرجل، كيف يظل يبحث عن قاتل أبيه عدة شهور من الفجر حتى قبيل الظهيرة وحينما يعثر عليه يعفو عنه؟ وفاء لعهده، حيث قد أمنى فى بيته وأجارنى؟ ثم وجدته يقدم لى ألف دينار، فأبيت أن آخذها وانصرفت عنه.

- ٤ -

فهذه الحادثة أغرب ما مر بى، وهذا الرجل أكرم من رأيته أو سمعت عنه، بعدك أيها الخليفة.

قال الخليفة :

نعم : إنه لرجل كريم، تغلب على نفسه ، وحافظ على عهده، فلم يخفه مهما كان السبب.

المحتويات

صدر للمؤلف

أولا : كتب للأطفال

سلسلة من القصص الدينى للأطفال ٦٥ كتابا صدر منها عن دار الفكر العربى :

١ - نسيبة الأنصارية - عام ١٩٧٥.

٢ - سعد بن معاذ - عام ١٩٨٠.

٣ - عثمان بن عفان - عام ١٩٨٠.

٤ - عبد الله بن مسعود - عام ١٩٨٠.

وعن مكتبة الأنجلو المصرية صدر من هذه السلسلة :

٦ حكاية معجزة الإسراء والمعراج - عام ١٩٩٤.

٧ - البراء بن مالك - عام ١٩٩٤.

وعن مؤسسة الخليج العربى صدرت السلاسل الآتية :

١٧ - (١٠) عشرة كتب سلسلة: رجال أحبهم الرسول ص - عام ١٩٩٥.

٢٧ - (١٠) عشر مسرحيات شعرية (مسرح الحواديت) - عام ١٩٩٥.

٣٢ - (٥) خمسة كتب من سلسلة: عظماء خدموا العالم - عام ١٩٩٤.

٣٣ - رجال أضاءوا الحياة عن دار الهلال - عام ١٩٨٥.

٣٤ - حكاية صبرى والأسد مجموعة قصص عن دار الهلال - عام ١٩٩٤.

٣٥ - رحلة إلى المدينة الطيبة مجموعة قصص عن دار الهلال - عام ١٩٩٩.

٣٦ - أولياء الله الصالحون للشباب على نفقة المؤلف - عام ١٩٩٧.

٣٧ - من أبطال الإسلام للناشئة المصرية للنشر والتوزيع - عام ١٩٩٧.

٣٨ - هدية لأمى عن دار المعارف - عام ٢٠٠٠.

٣٩ - العصا التى غلبت المدفع عن دار المعارف - عام ٢٠٠١.

٤٠ - أبطال حول الرسول ص عن دار الهلال - عام ٢٠٠٠.

تحت الطبع:

٦٧ - (٢٧) كتابا سلسلة: أعياد بلادنا القومية.

٨٨ - (٢١) كتابا سلسلة: رحلة الفتى زاهر.

٨٩ - ماذا فعلت فى الحج يا أبى؟

٩٠ - علمنى الحج يا أبى.

ثانيا: دراسات وتراجم: للكبار:

٩١ - أبناء مصر الصامدون على نفقة المؤلف الطبعة الأولى - عام ١٩٨١، والطبعة الثانية - عام ١٩٩٤.

٩٢ - قصص رواها الرسول ص على نفقة المؤلف - عام ١٩٩٥.

٩٣ - أمهات فاضلات فى الإسلام على نفقة المؤلف - عام ١٩٨٣.

٩٤ - أبطال مسلمون تحت ظلال التاريخ ج١ على نفقة المؤلف - عام ١٩٨١.

٩٥ - أبطال مسلمون تحت ظلال التاريخ ج٢ على نفقة المؤلف - عام ١٩٨٥.

٩٦ - رجال أحبهم الرسول ص عن الجامعة العمالية - عام ٢٠٠٠.

- وهو الجزء الأول من خمسة أجزاء كل جزء (٣٠) صحابيا رضى الله عنهم.

تحت الطبع:

٩٩ - (٣) كتب من سلسلة : اقرأ وشاهد (تعليم فن كتاب السيناريو والحوار للإذاعة والتليفزيون والمسرح والسينما).

١٠٠ - بناة النهضة المصرية.

١٠٣ - (قرأت لك عشرين كتابا - ثلاثة كتب).

١٠٤ - زعماء وثائرون.

١٠٥ - أسرة النبى عليه الصلاة والسلام.

ثالثا: الإبداعات الأدبية: المجموعات القصصية:

١٠٦ - فى الليل تحدث أشياء مجموعة قصصية عن الجامعة العمالية عام ١٩٨٦.

تحت الطبع :

١٠٧ – حبيب حبيبى – نادى القصة – عام ٢٠٠١.

١٠٨ – سحابة على وجه القمر – هيئة قصور الثقافة ؟

١٠٩ – العبقرى المجنون – الهيئة العامة للكتاب ؟

١١٠ – السبيل مجموعة قصصية على نفقة المؤلف.

١١١ – من أجلهم على نفقة المؤلف.

رابعا : الروايات : تحت الطبع :

١١٢ – كان البطل جدى – رواية.

١١٣ – أحبت بعد الأوان – رواية.

١١٤ – يا ضوء النهار هب لنجدتى – رواية.

١١٥ – تحت الشجر عاشق – رواية

١١٦ – الأبونيه – رواية.

١١٧ – ضوء القمر فضاح – رواية.

١١٨ – جنب الساقية ملاك – رواية.

١١٩ – الناس دائما يضحكون – رواية.

١٢٠ – الأم التى لم تنجب – رواية.

١٢١ – عند القبر غريب – رواية.

١٢٢ – رفقا بى يا ابنتى – رواية.

١٢٣ – رجل طيب وعبيط – رواية.

١٢٤ – دموع اللؤلؤ – رواية.

١٢٥ – أنغام ودموع – رواية .

١٢٦ – ظل عود معوج – رواية.

١٢٧ – تحت عباب المحيط – رواية.

١٢٨ – بحر الكوثر – رواية

١٢٩ - من قتله الحب- رواية.

١٣٠ - مواسم الصيد والزواج - رواية.

١٣١ - مغامرات رجل طيب - رواية.

١٣٢ - حكاية طالب موهوب - رواية.

١٣٣ - الأم وشجرة الصفصاف - رواية.

خامساً: الإبداع المسرحي:

١٣٤ - رحلة في طريق النور ثلاثة فصول على نفقة المؤلف - عام ١٩٨٢.

١٣٥ - الفقيه الثائر ثلاثة فصول على نفقة المؤلف - عام ١٩٨٥.

١٣٦ - البشرى العظيمة بمولد النبي ص ثلاثة فصول على نفقة المؤلف - عام ١٩٩١، والطبعة الثانية - عام ١٩٩٤، وعرضت على مسرح المركز العام للشبان المسلمين ٢٠٠٠/١٢/٧.

تحت الطبع:

١٣٧ - مسرحية حتى مطلع الفجر من ثلاثة فصول.

١٣٨ - جوازة شرك من ثلاثة فصول.

١٣٩ - فيفي وعفيفي من ثلاثة فصول.

١٤٠ - الكبار صاروا أطفالا من ثلاثة فصول.

١٤١ - نور على الطريق من خمس فصول.

١٤٢ - التاريخ يولي هاربا من ثلاثة فصول.

١٤٣ - عدالة في التوزيع من فصل واحد.

١٤٤ - نوارة البلد من فصل واحد.

١٤٥ - ذكريات عجوز من فصل واحد.

١٤٦ - بطل حطين من ثلاثة فصول.

١٤٧ - مسرحية نحو النور - من فصل واحد.

١٤٨ - مسرحية الثقة العمياء من فصل واحد.

١٤٩ - مسرحية القوة الغاشمة من فصل واحد.

١٥٠ - مسرحية قطار الزواج من فصل واحد.

١٥١ - مسرحية نهضة بطل عربى من فصل واحد.

١٥٢ - مسرحية صاحب الحق من فصل واحد مسرح الحواديت.

١٥٣ - مسرحية حكاية العم الطيب من فصل واحد - مسرح الحواديت.

سادسا: الأفلام السينمائية تحت التنفيذ:

- الصديق والطريق - تحت النفيذ.
- مدينة الأبطال والأخوة الثلاثة - تحت التنفيذ.
- الأسير والحب - تحت التنفيذ.

سابعا: الدراما التليفزيونية:

- الليالى الطويلة - قصة د. مرعى مدكور - سيناريو وحوار وأغانى درويش الزفتاوى
  - إخراج: أبو اليسر أبو اليسر.
- دموع لطيفة - قصة نادية كيلانى - المعالجة التليفزيونية والسيناريو والحوار والأغانى: درويش الزفتاوى - تحت التنفيذ.
- رحلة فى طريق النور (سهرة) تحت التنفيذ.
- البشرى العظيمة بمولد النبى ص - تحت التنفيذ.
- ٤٠ حدوتة درامية للطلائع الحوار بالفصحى - إخراج حازم عبيس (حواديت).
- ثلاثون برنامجاً خاصاً للمناسبات مثل عيد الطفولة وأخرهم برنامج مساء الخير (ق ١).

الدراما التليفزيونية:

- مسلسل رجال أحبهم الرسول ص لتليفزيون الكويت أربع حلقات سنة ١٩٩١.
- مسلسل حواديت مرة ثانية ١٥ حلقة تحت التنفيذ إخراج: عبد العزيز محمد.

ثامنا: الأعمال الإذاعية:

- دموع اللؤلؤ – سهرة درامية – إخراج: عاطف الحوفى (البرنامج العام).
- علامة صح أحيانا – سهرة درامية – إخراج: رمزى مجاهد (البرنامج العام).
- الصديق والطريق – سهرة درامية – إخراج: رمزى مجاهد (البرنامج العام).
- على زين العابدين بن الحسين – سهرة – إخراج : أحمد سليم (البرنامج الثقافى).
- البشرى العظيمة بمول النبى ص – سهرة – إخراج: جمال حماد (صوت العرب).
- رحلة فى طريق النور – سهرة – إخراج: أحمد سليم (البرنامج الثقافى).
- مسلسل: رجال أحبهم الرسول ص لإذاعة الكويت (٤) أربع حلقات سنة ١٩٩١.
- سهرة درامية (ثابت بن قيس) إذاعة صوت العرب إخراج : المرحومة ملكة نجيب.
- عشر تمثيليات بالفصحى فى برنامج العربى الصغير لإذاعة صوت العرب إخراج سوسن النمرسى.

تاسعا: البحث التربوية:

- الجامعة العمالية والتنمية الإدارية.
- الثقافة العمالية وطرق تعليمها.
- أيتها الأمية ستمحون من مصر.

صدر من هذه السلسلة

١ - آلام صغيرة وقصص أخرى - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة عام ١٩٩٨.

٢ - يوميات عروبة - د. هانى الرفاعى.

٣ - ماروه البحراوى - عبد الرحمن شلش .

٤ - أبناء نادى القصة - محمد محمود عبد الرازق.

٥ - زوجتى تريد أن تزوجنى - فتحى سلامة .

٦ - الحى الراقى - فتحى مصطفى .

٧ - الياسمين يتفتح ليلا - عزت نجم.

٨ - حدائق السماء - محمد سليمان.

٩ - الفائزون بجوائز آخر القرن العشرين - الفائزون فى مسابقة القصة القصيرة.

١٠ - دلونى على السبيل - محمد الشريف.

١١ - الجدة حميدة - حسن الجوخ.

١٢ - فستان زفاف قديم - على عيد .

١٣ - بحر الزين - حسن نور.

١٤ - من أوراق العمر - محمد كمال محمد.

١٥ - إحراج - نادية كيلانى.
١٦ - البنات - هدى جاد .
١٧ - عاد الأسد .. أسد نبيلا - عبد المنعم السلاب .
١٨ - عراف السيدة الأولى - محمد القصبى .
١٩ - حكايات عن العربيد - صلاح عبد السيد .
٢٠ - السلمانية - صلاح معاطى .
٢١ - الفـائزون أول القـرن الحـادى والعـشـرين - الفـائزون فى مسابقة القصة القصيرة.
٢٢ - صبحى الجيار والمحنة المضيئة - مصطفى عبد الوهاب.
٢٣ - الرغبة الوحيدة - صوفى عبد الله.
٢٤ - الغزال فى المصيدة - محمود البدوى.
٢٥ - خراط البنات - صفوت عبد المجيد.
٢٦ - القصة القصيرة عند ثروت أباظة وقضايا المجتمع - حسين عيد
٢٧ - حوار مع جنية - عصام الصاوى
٢٨ - ليلة موت - عبد الحميد الفداوى
٢٩ - حبيب حبيبى - درويش الزفتاوى

الإصدار القادم

لقاء غير متوقع - محمد صفوت

شركة الأمل للطباعة والنشر
(مورافيتلى سابقاً)